المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

البلاغة التربوية بين النظرية والتطبيق

Educational rhetoric between theory and practice

بقلم الدكتور

شحاتة عبد الرازق أبوشوشة

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية
جامعة الأزهر - جمهورية مصر العربية

الجزء الخامس (إصدار يونيو ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

البلاغة التربوية بين النظرية والتطبيق

شحاتة عبد الرازق أبوشوشة

قسم البلاغة والنقد - بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية - جامعة الأزهر - جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني : ShehataAbdelrazek@yahoo.com

الملخص

علم البلاغة حظي بكمال الشرف، وتمام القصد، منذ أن خُطَّ سطره الأول، لارتباط نشأته بالبيان القرآني الكريم، فكان هذا البيان المعجز هو المؤثر الأعلى في تطور مراحله، ومن ثم اتفق أرباب هذا العلم على بيان فضيلته، وضرورة تحصيله.

ولأهمية هذا العلم تتنادى الأصوات النابهة إلى ضرورة تجديده والارتقاء به، ومن مظاهر ذلك التجديد وملامحه خوض الدرس البلاغي ميادين جديدة، وعَلِيُّهَا انفتاح البلاغة على آفاق الميدان التربوي بتوجهاته وأساليبه وغاياته، وهو ميدان رحيب مديد ذو أثر كبير في السلوكيات العامة للمجتمعات والخاصة للأفراد، بما يمكننا أن نسميه (البلاغة التربوية).

وبنيت هذه الدراسة على مقدمة، ومبحثين: الأول: الملامح التربوية في العلوم البلاغية. والثاني فهو: ملامح البلاغة التربوية في تراث الإمام عبد القاهر الجرجاني. ثم خاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: البلاغة ،التربوية، ملامح ، تراث ، عبد القاهر

Educational rhetoric between theory and practice

Shehata Abdelrazek Aboshosha
Lecturer at the Department of Rhetoric and Criticism Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Alexandria, Al-Azhar University - Arab Republic of Egypt.
Email: ShehataAbdelrazek@yahoo.com

Abstract

The science of rhetoric has enjoyed complete honor and complete intent, since its first line was written, due to the connection of its origins with the Noble Qur'anic statement, so this miraculous statement was the supreme influence in the development of its stages.

Because of the importance of this science, the voices calling out for the necessity of renewing and upgrading it, and among the manifestations of that renewal and its features is entering the rhetorical lesson into new fields, and upon it the opening of rhetoric to the horizons of the educational field with its orientations, methods and goals, which is a broad and long field with a great impact on the general behaviors of societies and the private ones of individuals, so that we can To call it (educational rhetoric.)

This study was built on an introduction and two sections: the first: educational features in rhetorical sciences. The second is: the features of educational rhetoric in the legacy of Imam Abd al-Qaher al-Jurjani. Then a conclusion and a list of sources and references.

Keywords: rhetoric - education - features - heritage - Abdel-Qaher.

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم:

الحمد لله رب العالمين، حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام الدائمان على الهادي البشير، المبتغى شفاعته يوم الدين.

وبعد:

فإن علم البلاغة حظي بكمال الشرف، وتمام القصد، منذ أن خُطَّ سطره الأول، لارتباط نشأته بالبيان القرآني الكريم، فكان هذا البيان المعجز هو المؤثر الأعلى في تطور مراحله، حيث انشغل المهتمون بالنظر في مفرداته وفصاحتها، وتراكيبه وبلاغتها، وصوره وسعتها، وأسفرت هذه المحاولات عن نشأة علم البلاغة الذي جعلوه من أولى العلوم بالتعلم والفقه بعد العلم بالله تعالى، لكونه الطريق إلى الوقوف على إعجاز القرآن الكريم الذي خص بالإيجاز وحسن التأليف وبلاغة التراكيب وجمال بيانه وحسن بديعه[١]، ولأنه المصدر الأول لتربية المسلمين وتهذيبهم وتقويم سلوكهم وفق منهج العلي الحكيم سبحانه وبحمده.

وكانت آياته النموذج الأعلى في الاستنباط وحسن التوجيه، كما كانت المقياس البلاغي للنظر في النتاج الأدبي نثره وشعره، والموازنة فيما بينها من سمات وخصائص، ومن دلائل تأثير البيان القرآني في نتاج علم البلاغة أن إحدى آياته، وهي قوله تعالى (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) الصافات ٦٥، وجهت أبا عبيدة معمر بن المثني إلى تأليف كتاب (المجاز)[٢] ومن ثم اتفق أرباب هذا العلم على بيان فضيلته، وضرورة تحصيله، إما دفاعا عن القرآن بالتماس وجوه إعجازه، وإما لإشباع ما يعتمل في صدر المتدبر من جهة فهم معانيه الذي لا

---

(١) ينظر/ كتاب الصناعتين-الكتابة والشعر/ أبو هلال العسكري/ ٧/ ت/ علي محمد البيجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم/ دار الفكر العربي

(٢) معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب/ ياقوت الحموي/ ١٩/ ١٥٨/ دار الفكر، بيروت-١٤٠٠-١٩٨٠

يدرك إلا بالتثبت من علم البلاغة ومقاصده[١]، وإما لتبيين أن ما جاء في البيان البشري من خصائص وجماليات موجود في البيان القرآني على وجه معجز وقف أمامه العرب الأوائل مشدوهين منبهرين[٢]. ثم تتابعت الدراسات البلاغية المرتبطة بالإعجاز القرآني الكريم، ثم بتأسيس علوم البلاغة التحليلية الذوقية، ثم بتحديد علومها وتقسيماتها وتقعيدها، ثم الشروح والحواشي المبينة عن مرحلة تفكيرية عربية مسلمة، إلى أن جاء العصر الحديث الذي علت فيه أصوات العلماء الحريصين على تراث الأمة للمطالبة بتجديد البلاغة وتطويرها، وتنادت أصوات آخرين يطالبون بتنحيتها جانبا، وإحلال النظريات المستوردة من تراث وثقافات الغرب مكانها.

وجلي لا يخفى أن الدرس البلاغي -بحثا وتأليفا وتدريسا- يحتاج إلى التجديد والتطوير والارتقاء، وليس إلى التشويه أو الشوشرة والترك، وأرى أن من مظاهر ذلك التجديد وملامحه خوض الدرس البلاغي ميادين جديدة، وعَلِيُّهَا انفتاح البلاغة على آفاق الميدان التربوي بتوجهاته وأساليبه وغاياته، وهو ميدان رحيب مديد ذو أثر كبير في السلوكيات العامة للمجتمعات والخاصة للأفراد، بما يمكننا أن نسميه (البلاغة التربوية).

وتحريرا لهذا العنوان أقول: يقصد بمصطلح البلاغة التربوية أمران: الأول: إبراز الملامح التربوية لعلم البلاغة، والآخر: توظيف الدرس البلاغي التحليلي في المجال التربوي، لتحقيق غاية البيانين القرآني والنبوي، وما يحمله البيان الإنساني من قيم ومبادئ وأخلاق، فهو أولى هذه الميادين بانفتاح البلاغة عليه، وخوض غماره الرحيبة، وتوظيف البلاغة في تقرير الملامح التربوية، بمستوياتها العديدة، كمستوى علاقة النفس الإنسانية بربها العلي العظيم، ومستوى تعاملها مع بني جنسها، ثم مع مكونات الكون الفسيح.

---

(١) ينظر/ أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري/ محمد زغلول سلام/ ٢٠٦/ دار المعارف بمصر

(٢) ينظر/ البيان العربي-دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية/ د/ بدوي طبانة/ ٣٩ وما بعدها/ ط٢-مكتبة الإنجلو المصرية

ومن ثم جاءت هذه الدراسة لتحقيق أهداف عديدة منها ما يلي:

أولا- تطوير الدرس البلاغي المعاصر، وتوسعة ميادينه، والرد على منتقدي البلاغة وواسميها بالجمود والتوقف، يقول ابن قتيبة: (إن الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره)[١]وكما أسسوا جددوا ما أسس دون اتهام لعلومهم بالجمود والمطالبة بتنحيتها، وهذا واجب باحثي الأمة وعلمائها دون كلل أو ملل.

ثانيا- إحياء مكانة البلاغة في نفوس طلبة العلم، ليقبلوا عليها، وينهلوا من معينها، ويرتشفوا من رحيقها، فتعلوا ملكات إدراكهم، وتنموا حواسهم الذوقية.

ثالثا- تقريب البلاغة العربية إلى جماهير الأمة، لما في توظيفها التربوي من نفع عظيم تحتاج الأمة إليه، ويسر يزيد الجماهير حماسة وإقبالا عليها.

رابعا- إثراء المنهج التربوي الإسلامي، بما تؤديه البلاغة من دور رائد في استنباط الأبعاد التربوية المؤثرة في السلوك الإنساني، وهو ميدان ثري، لا يكاد يحاط به، حيث لا تخطئ عين بصيرة ما يزخر به البيان القرآني والنبوي من الأساليب التربوية العلية، كالتربية بالقدوة، وبالقصة، وبالحوار والمناقشة، وبالإشارة، وبإثارة الفكر والاكتشاف، والسؤال، وضرب الأمثال، والنصيحة والوعظ والإرشاد وتحفيز الوجدان، وتعانق الترهيب والترغيب، ... وهي أساليب تحتاج إلى الكشف عن دقائقها، واستخراج لآلئها، والبلاغة خير ما يقوم بتلك الوظيفة الشريفة، بإظهار ما وراء الكلمات بصفائها، والتراكيب بجلالها، والصور بجمالها ورحابة ظلالها، والبديعيات وآثارها- من قيم تربوية وأخلاق حسنة، لكونها تقوم على منهج إثارة المخاطب، وتغيير قناعاته، وطرق التوجيه والإلقاء، ومن ثم دعوته إلى الإيمان والهدى.

---

(١) الشعر والشعراء/ ٧/ دار إحياء العلوم/ ط٦/ بيروت-١٩٩٧م

الدراسات السابقة:

ولم أجد -فيما أعلم- دراسة قامت في هذا الميدان، إلا الدراسات التي تناولت بعض الموضوعات البلاغية في القرآن الكريم وبيان أثرها التربوي، مثل: كتب التفسير المعنية بالجوانب البلاغية في البيان القرآني، وخصائص التعبير وسماته البلاغية د/ عبد العظيم المطعني/ رسالة دكتوراه في كلية اللغة العربية- جامعة الأزهر، ومما تناوله فيها: الترغيب والترهيب في العقيدة والسلوك وحسن المصير وسيئه، وأساليب الشرح والإيضاح ومقاماتها في التربية والتوجيه – دراسة بلاغية تطبيقية/ د/ محمد بن عبد الرحمن الخراز/ قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة القصيم – ١٤٣٤-١٤٣٥هـ، والأبعاد التربوية الأخلاقية في التشبيهات القرآنية-سورة الأحزاب أنموذجا/ رسالة دكتوراه من إعداد الباحث/ عبد الفتاح أحمد عبد الحي السعدي/ جامعة المدينة العالمية بماليزيا-٢٠٢٠م، ورسالة بعنوان/ الجوانب البلاغية في سورة المزمل وقيمها التربوية/ الحاج توفيق الرحمن. وهما تتناولان القيم التربوية المنسولة من النكات البلاغية.

وهذا هو المجال التطبيقي الذي تدعو إليه هذه الدراسة القاصدة إلى ضرورة تجديد ميادين البلاغة وتوسيع آفاقها، وتأصيله والدعوة إليه، ومن ثم فهي تنبه إلى وضع لبنة في تأسيس الجانب التربوي في البلاغة العربية، الذي يبدو بارزا ظاهرا في تعريفها وفي مباحثها كما سيتضح فيما هو آت بأمر الله تعالى.

وتحقيقا لهذه الأهداف، اتجهت لدراسة الملامح التربوية في المباحث البلاغية بدءا من مبحث الفصاحة والبلاغة، ثم علم المعاني، ثم علم البيان، ثم علم البديع، ثم توجهت إلى تناول العديد من هذه الدروس التربوية التي اشتمل عليه كتابا الإمام عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، ليكون هذا المبحث نموذجا تطبيقيا لما يجب أن يكون عليه البلاغي، في تناوله لعلوم البلاغة، وفي تحليله البلاغي للنماذج المختارة شاهدا لرؤيته ودليلا عليها، وبنيت هذه الدراسة على مقدمة، ومبحثين:

المبحث الأول: الملامح التربوية في العلوم البلاغية.

وأما المبحث الثاني فهو: الملامح التربوية في التراث البلاغي للإمام عبد القاهر الجرجاني.

وجاءت الخاتمة مشتملة على أهم نتائج هذه الدراسة وتوصياتها.

ثم قائمة المصادر والمراجع

والله تعالى أسأل العون والتوفيق والقبول.

المبحث الأول: الملامح التربوية في العلوم البلاغية.

توطئة:

لا تخطئ عين باحث في نشأة البلاغة وتطورها وتتابع التصنيف فيها، أنها قامت لتحقيق هدف عليٍّ ومقصود سميٍّ ألا وهو خدمة القرآن الكريم، ولا يتصور عاقل أن هذا العلم الذي كانت هذه نشأته أن يخلو من النهج التربوي، وهو الهدف الأسمى للبيان الكريم، وهذه النشأة أكسبت علوم البلاغة دورا بارزا في توجيه الأمة وإرشادها إلى حسن التلقي لكتاب الله المعجز، والتسليم لجلاله وعظمته، والاستجابة لهديه ودعوته، وهذا ما نحاول استنطاق علوم البلاغة به، لتتقرر لدينا حقيقة الأثر التربوي العظيم للبلاغة العربية.

وقد أكدت هذه النشأة المباركة مصنفات علماء البلاغة المؤسسين ومن تبعهم، ومن أمثلة ذلك ما قام به الجاحظ في رسالته (حجج النبوة) من الحديث عن بلاغة العرب وقدراتهم البيانية، ومع ذلك عجزوا عن معارضة القرآن الكريم رغم تقريعه لهم وتحديهم بسورة منه[1]، فهذه رسالة -من أحد كبار علماء الأمة الأوائل الذين أسسوا لهذا العلم الشريف - تبرز توجه أرباب هذا العلم تجاه البيان الكريم، للكشف عن علوه وجلاله وقدسيته، وفي ذلك درس تربوي يتجلى في دعوة الأمة لتلتف حول هذا الكتاب المعجز، ولترتبط به، ولتتبع هداه.

وهذا ابن المعتز يأتي بالشواهد القرآنية أولا، لتكون المقياس الذي يقيس عليه، ويحتكم إليه، ومن التزامه بهذا المنهج ما قاله عندما ورد على ما سماه الجاحظ المذهب الكلامي: (وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً، وهو يُنْسَبُ إلى التكلُّف)[2]، فهو ينبه إلى أن البيان الكريم مقياس يدور معه حيث دار قياسا وشاهدا. وهذه لفتة تربوية حافلة لا يجوز المرور عليها دون التلبث أمامها، والاحتفاء بها، لتعليم الجيل سبب علو الأمة في العصور السابقة، وهو

---

(١) رسائل الجاحظ/ ٣/ ٢٧٣/ ت/ عبد السلام محمد هارون/ مكتبة لسان العرب

(٢) كتاب البديع/أبو العباس عبد الله بن المعتز/ ٦٩/ ت/ عرفان مطرجي/ مؤسسة الكتب الثقافية- ط١- ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م

اتخاذ الكتاب الكريم منهجا علميا في جميع المجالات، وبخاصة في الدرس البلاغي.

ومثله صنع الرماني، وأبو هلال العسكري.[١]، ثم تأنقت البلاغة وألقت بمؤلفي عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، اللذين حظيا من نضج التفكير البلاغي بما لم يسبق إليهما، وكان التوجيه فيهما خالصا لتقرير أسس الإعجاز القرآني ودلائله. وقد حفلا بملامح بلاغية تربوية عديدة الجوانب، بديعة التناول، وستتناول الدراسة جانبا من ذلك في المبحث الثاني.

وفي مفتاح السكاكي تعد غلبة الشاهد القرآني ظاهرة في جميع شواهده، فبلغت شواهده القرآنية ما يزيد عن خمسمائة، بينما بلغ شاهده الشعري ما يزيد عن مائتين وخمسين، مما يشهد بعنايته بالشاهد القرآني ومزيد احتفائه به[٢]، لما فيه من روعة وبلاغة وإعجاز، وما يتبع ذلك من توجيه طلاب العلم وتربيتهم على مائدة القرآن الكريم وعلوم بلاغته المباركة.

وتبعهم من جاء بعدهم من مؤسسي علم البلاغة وشارحي قواعدها، في التنويه بمكانة هذا العلم الشريف، وتأكيد دوره الجليل في إعجاز القرآن الكريم[٣]. ولم يكن هذا شأن أئمة البلاغة فحسب، بل هو شأن أئمة جميع علوم العربية وأربابها[٤]، فلم يبتعدوا عن هذا الفقه المبين أثر القرآن الكريم في تهذيب اللسان وتربية حاسة الذوق والارتقاء بالبيان المفصح عما في النفوس، والمؤثر في الوجدان، والمقنع للعقول، حتى الكتاب من أهل العربية نجد لهم في ذلك آثارا، من

---

(١) ينظر/ النكت في إعجاز القرآن/ لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني/ ١٧ وما بعدها/ مكتبة الجامعة الملية الإسلامية-دهلي ١٩٣٤م، وينظر/ الصناعتين/ ٧/ ت/ علي محمد البيجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم/ دار الفكر العربي

(٢) ينظر/ منهج التعامل مع الشاهد البلاغي بين عبد القاهر الجرجاني وكل من السكاكي والخطيب القزويني/ د/ عويض بن حمود العطوي / ٥٢٣/ مجلة جامعة أم القرى/ ج١٨/ ع٣٠/ جمادي الأولى ١٤٢٥ه

(٣) التلخيص في علوم البلاغة/ جلال الدين القزويني/ ٢٢/ شرح عبد الرحمن البرقوق/ دار الفكر العربي، وينظر/ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز/ بحيى بن حمزة العلوي/ ٣٢/ مطبعة المقتطف بمصر-١٢٢٣ه-١٩١٤م

(٤) ينظر/ الموجز في تاريخ البلاغة/ د/ مازن المبارك/ ٥٠/ دار الفكر

ذلك قول عبد الحميد الكاتب: (فتنافسوا- يا معشر الكتاب - في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين، وابدؤوا بعلم كتاب الله عز وجل، ثم العربية فإنها ثِقاف ألسنتكم. ثم أجيدوا الخط فإنه حِلْية كتبكم)[١].

ففي دعوته الكتاب للتنافس في مختلف الصنوف الأدبية والتفقه في الدين يضع لهم منهجا منظما، حيث إنه يوجههم إلى البدء بعلم كتاب الله سبحانه وتعالى، ثم بعلوم العربية لتستقيم ألسنتهم وتهذب، ثم بتحسين الخط العربي وإجادته، لتتجلى حليته وآثاره في كتبهم، وأزعم أن للخط الجيد تأثير جمالي في نفس الكاتب وفي نفوس قرائه. والنفس عاشقة لكل جميل، وإذا تجملت النفس تجمل كل ما تقع العين عليه، كما قالوا: (كن جميلا ترى الوجود جميلا) والتربية على الجمال والحسن الحسيين له مقاصد تحسينية للسلوك والأخلاق.

يستخلص مما سبق:

أن علوم البلاغة نشأت وترعرعت تحت راية القرآن الكريم، واستمرت تنمو في ظلاله حتى يومنا هذا، لبيان إعجازه والدفاع عنه[٢]. وأن هذا هو السر الأعظم والسبب الأعلى الذي دفع علماء العربية وأئمتها قديما وحديثا للتأليف في هذا الميدان الرحيب، يقول الدكتور بدوي طبانة: (من النادر أن نجد أثراً من الآثار التي عرضت للبيان العربي خلا من الإشارة إلى القرآن ونظمه، ولو في معرض الاحتجاج والاستشهاد في الأقل، وفي هذا يؤكِّد بُعْدَ أثر الدراسات القرآنية في نُمُوِّ الدراسات البيانية وتنوُّعها، وعدم انقطاع هذا التأثر في سائر العصور)[٣].

---

(١) تاريخ الأدب العربي/ د/ عمر فروخ/ ١/ ٧٣١/ دار العلم للملايين-بيروت/ ط٤ ١٩٨١م

(٢) الموجز في تاريخ البلاغة/ ٤٨/ دار الفكر

(٣) البيان العربي-دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية / ٤١، ومع ذلك اتهمت البلاغة العربية بالجمود والتحجر تارة، وبضرورة تجاهلها وتنحيتها عن الساحة العلمية والأدبية والثقافية تارة أخرى، والإقبال على المناهج والنظريات المستحدثة التي بزغ نجمها في العالم الغربي كاللسانيات، والسيميائيات، والتداوليات، والشعريات، وغيرها/ ينظر/ البلاغة تطور وتاريخ/ د/ شوقي ضيف/ ٢٧١/ ط٤ دار المعارف/ وإذا وعينا أن نشأة البلاغة وتطورها وتمامها: تقسيما وتقعيدا كان تحت راية القرآن الكريم – فإننا ندرك خطورة هذه الدعاوى وخبثها، فنجاحها يعني قطع الصلة بين الأمة وبلاغة قرآنها ووجوه إعجازه، وتزهيد أبنائها في الارتباط بهذا الكتاب الكريم، وفي هذا الخطر الداهم، والمستقبل القاتم.

ولما كان القرآن الكريم كتاب دعوة وهدى، وتربية ورشاد، فإن علم البلاغة هو الأجدر بالكشف عن هذه الأساليب التربوية المتعددة الأشكال والوسائل لما يمتاز به من جانبين رئيسين: الأول جانب التواصل والإبلاغ، والثاني: جانب الجمال والإمتاع، تؤدي ذلك بوسائل عديدة وطرق كثيرة، وقدرتها على الإقناع والإلزام، سئل ابن المعتز ما البلاغة فقال: (البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل)[١]

وهي تقوم بالوفاء بحق هذين الجانبين فإنها تعتمد منهج الوضوح وتنزع إلى الظهور والنفور من الغموض والتعقيد، وكل ما يحول بين المتكلم والمتلقي، ويقطع التواصل بين النص وقارئه، أو يحجبه عن فهمه، أو يؤخر هذه الوظيفة[٢]

ولم تغفل البلاغة الحجة والبرهان، لدورهما في الإقناع والإلزام، فقد عرفها الجاحظ (بأنها إصابة المعنى والقصد الى الحجة دون فضل أو تقصير)[٣]، ولا يستغني الحجاج عن مثل هذه الآلية التي تقنع الخصم وتلزمه، ومما يذكر هنا قوله تعالى:(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) البقرة٢٥٨، لما تلاعب النمرود وراوغ بقوله: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده/ ابن رشيق القيرواني/ ١/ ٢٤٣/ ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر/ دار الجيل الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

(٢) أثر المتلقي في التشكيل الأسلوبي في البلاغة/ وليد قصاب/ ١/ ٦٧٤/ سجل ندوة الدراسات البلاغية بين الواقع والمأمول/ جامعة الإمام محمد بن مسعود/ الرياض السعودية ١٤٣٢ه (قال الجاحظ: قال ثمامة بن أشرس: قلت لجعفر بن يحيى: ما البيان؟ قال: أن يكون اللفظ يحيط بمعناك، ويخبر عن مغزاك، ويخرجه من الشركة، ولا يستعين عليه بالكثرة، والذي لا بد منه أن يكون سليماً من التكلف، بعيداً من الصنعة، برياً من التعقيد، غنياً عن التأويل) العمدة/ ١/ ٢٤٩

(٣) الرسائل الأدبية/ الجاحظ/ ٥٣/ دار ومكتبة الهلال، بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ ه

جاءته الحجة الثانية (فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ) قاهرة غالبة، فهي مما لا يطيقه النمرود، ولا يمكنه التشويش عليه والتهرب من سطوته، وكانت النتيجة أنه تحير ولم يرجع إليه جواب، وسقطت حجته وانكشفت سوءته، فالبرهان من آليات البلاغة الجديرة بالتوجيه التربوي، وإلزام المتلقي بما يوجه إليه من قيم ومبادئ.

وسوف تتناول الدراسة بعض هذه الملامح التربوية في بعض النماذج من بحوث البلاغة كمبحث الفصاحة والبلاغة، ومبحث رعاية مقتضى الحال، والاهتمام بالمخاطب كشريك رئيس في الإبداع، ثم ما في الصورة البيانية من تعدد الطرق التي تؤدي دورا قيما في توضيح المعاني وتقريرها، وما لها من قوة تأثيرية في نفوس المتلقين، ثم ما في الفنون البديعية من تبيين وتأكيد وتنغيم، وما وراء ذلك من الدروس التربوية الموجهة لما يبتغيه النص من ترسيخ القيم ومعالم الهدى في النفوس. وستعضد الدراسة ذلك ببعض الشواهد المعينة على إبراز الملامح التربوية في الجانب التحليلي للنصوص.

الملامح التربوية في تناول الفصاحة والبلاغة:

وأول درس تربوي في البلاغة يتناول العناية بالألفاظ والتراكيب، في تبيان الفصاحة والبلاغة، ويبدو في هذا الدرس توجيه تربوي لافت، بتحميل المتكلم مسئولية ما يتلفظ به، والمحاسبة عليه، وكان العرب قديما يقيمون الرجل وفق ما يتكلم به، كما يقيم الذهب بنقائه وصفائه، يقول جعفر الصادق: عورة المؤمن أن يراه يتكلم بكلام يعاب عليه، فيحفظه عليه ليعيره به يوما إذا غضب[1]، وليست هذه المسئولية في الدنيا فحسب، وإنما هي مسئولية شاملة، قال جل وعلا: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ق/ ١٨

وهذه المسئولية يلزمها الاهتمام بالكلمات، وتهذيب العبارات، والارتقاء المستمر بمخرجات اللسان، وقد أغنانا البلاغيون عن البحث عما يجب أن يكون عليه وبه هذا الاهتمام، فالفصاحة بمعاييرها في الكلمة، بأن تخلو من تنافر

(١) ميزان الحكمة/ محمد الريشهري/ ٣/ ٢٢٠٩/ دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع

الحروف والغرابة ومخالفة القياس، تنمي عند المتلقي حاسة الذوق الرفيع في اختيار الكلمات والإحساس بها والمسئولية عنها، وهذه تربية ذوقية في الاهتمام بالمفردات المتكلم بها، وتحفيز ذهني عاصم من التلفظ بكلمات لا تناسب المقام، وحماية لمشاعر المخاطبين مما لا يتسق مع مكوناتهم النفسية والوجدانية.

ومثلها معايير فصاحة الكلام، وهي خلوه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد اللفظي والمعنوي(١)، وهذه المحاذير تحفز المتلقي لاختيار كلماته، وتنقية مفرداته، وتساعد على نماء ملكة تمييز الكلام الجيد من الرديء، وما أشد الحاجة إلى هذه التربية البلاغية المعينة على دحر هذه الموجة العابثة بالأمة، حيث أضحت الآذان نافرة مما يلقى عليها في الشوارع والمواصلات والأماكن العامة وفي الصحف والمجلات والمرئيات ووسائل التواصل الاجتماعية من كلمات وجمل من مخرجات شياطين الإنس والجن.

وبتربية النشء على هذه القيم البلاغية التربوية نحصن الأجيال القادمة من هذا القبح المسيء للأمة التي اختيرت؛ لتكون خير أمة أخرجت للناس، فالكلمة الطيبة نور مصدرها قلب نقي، وأثرها إشراقة تنساب في أذن المتلقي لتصل إلى قلبه فتثمر وتنثر فيه وفي مجتمعه الخير، والكلمة الخبيثة ما هي إلا فساد ينتشر ويتوغل في النفوس والمجتمعات فتهلك الحرث والنسل، إننا بحاجة إلى التخلق بخلق القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [النساء: ٨]، وقال: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٨]، وقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} ﴾ [البقرة: ٨٣] وقال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٤، ٢٥)

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع/ الخطيب القزويني/ ١٣ -١٦/ ط١/ دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

وأما السنة فقد حفلت بتوجيهات تحفظ للأمة أخلاقها وأدب كلماتها، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه–عن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم)(١). وعن عامر قال: سمعت عبد الله بن عمر، يقول: قال النبي_ صلى الله عليه وسلم: (مَن سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)(٢). فاللسان من نعم الله العظيمة، وآية من آياته البديعة، تستدعي الحمد له سبحانه، وتقضي شكره بما تتلفظ به من طيب الكلام، وتطلب شكره بحفظها من سوء الكلام وفاحشه، وقد كانت المجتمعات السالفة تتواصى بهذا الخلق الذي يحمي المجتمعات ويعلي من شأنها بين الأمم، فليست حضارتنا مادية تنظف الملابس والشوارع فحسب، بل تطهر القلوب وتنظف الألسنة، بل نظافة الأخيرين أهم وأجدى، وأعلى وأنقى.(٣)

وكما أن في كل ميدان ركائز وأسسا يبنى عليها غيرها، ويتبع لاحقها سابقها، فإن في الكلام كلمات تعد أعمدة لغيرها، بل قد تكون الكلمة ركيزة معاني قصة كاملة، تشدها إليها وتجذبها إلى مدارها، ففي قصة الهدهد (النمل:٢٠-٤٤) تجد كلمتي (سبأ–نبأ) هما أساس المعنى الذي ترجع إليهما القصة كلها. ولا يخرج منها شيء عنهما، وإذا طلبنا جلال الجناس فيهما فلا نجده إلا بمجيئه في الكلمتين اللتين هما عمود المعنى ومداره.

---

(١) صحيح البخاري/ كتاب الرقاق/ باب حفظ اللسان.

(٢) صحيح اللخاري/ كتاب الرقاق/ باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

(٣) مرَّ بهِ رجلٌ لَه شرَفٌ فقالَ لَه علقَمةُ إنَّ لَكَ رحِمًا وإنَّ لَكَ حقًّا وإنِّي رأيتُكَ تدخُلُ علَى هؤلاءِ الأمراءِ وتتَكَلَّمُ عندَهُم بما شاءَ اللَّهُ أن تتَكَلَّمَ بهِ وإنِّي سمِعتُ بلالَ بنَ الحارثِ المزَنيَّ صاحبَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ قالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ إنَّ أحدَكُم ليتَكَلَّمُ بالكلِمةِ من رضوانِ اللَّهِ ما يظنُّ أن تبلُغَ ما بلغت فيَكْتبُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لَه بها رِضوانَهُ إلى يومِ القيامةِ وإنَّ أحدَكُم ليتَكَلَّمُ بالكلِمةِ من سَخَطِ اللَّهِ ما يَظنُّ أن تبلُغَ ما بلغت فيَكْتبُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عليهِ بها سَخطَهُ إلى يومِ يلقاهُ قالَ عَلقَمَةُ فانظُرْ ويحَكَ ماذا تَقولُ وماذا تَكَلَّمُ بهِ فرُبَّ كلامٍ قد منعَني أن أتَكَلَّمَ بهِ ما سمِعتُ من بلالِ بنِ الحارثِ/ صحيح ابن ماجه | الصفحة أو الرقم: ٣٢٢٠

تربي هذه الملامح البلاغية التحليلية في القصة ومثيلاتها المتلقي على قيم جليلة، ودروس تربوية عميقة الأثر، وتساعدنا على بناء عقول متسقة التفكير دقيقة في اختيار الكلمات بوعي وواقعية منظمة محددة، تعرف الأصول منها من الفروع، والرؤوس من التوابع، والغث من الثمين، والشحم من اللحم، وتلك عين الحكمة ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا. وما كثرت مظاهر الإلحاد والفجور وسط شباب الأمة إلا بسبب حالة التيه التي حطت برحالها في مجتمعاتنا، وصادفت عقولا ضعيفة الوعي، عديمة القدرة على التمييز بين الكلمة البانية والكلمة الهادمة، والكلمة الخبيثة من الكلمة الطيبة.

أما البلاغة ففي تعريفها ملامح تربوية جليلة القدر عظيمة النفع، أسس لها الإمام عبد القاهر بذكره معالم الجمال البلاغي التربوي في تبيانه لمعاني البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وهي عنده مترادفات، فيقول: (ومنَ المعلوم أنْ لا معنى لهذه العباراتِ وسائرِ ما يَجْري مَجراها، مما يُفرد فيه اللفظُ بالنعتِ والصفةِ، وينسبُ فيه الفضلُ والمزيةُ إليه دونَ المعنى، غيرُ وصْفِ الكلام بِحُسْنِ الدَّلالة وتمامِها فيما له كانت دَلالةٌ، ثم تَبرُّجها في صورةٍ هي أبهى وأزْيَنُ وآنَقُ وأَعْجَبُ وأَحقُّ بأنْ تستوليَ على هَوى النفس، وتنالَ الحظَّ الأوفرَ من مَيْل القلوب، وأولى بأن تُطْلِقَ لسانَ الحامدِ، وتُطِيلَ رغْمَ الحاسد ولا جهةَ لاستعمال هذه الخصالِ غيرُ أنْ تأتي المعنى من الجهة هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظُ الذي هو أَخصُّ به، وأَكْشَفُ عنه وأَتمُّ له، وأَحرى بأن يَكسبه نُبلاً، ويظهر فيه مزية)[1] وفيه يجلي الإمام الأثر البليغ للكلمة في نفوس السامعين واستمالة القلوب، وتحريك الألسنة الحامدة، وذلك بأن يكون للألفاظ تبرج في صورة أبهى، وأزين، وآنق، وأعجب، ومن ثم يكون لها الأحقية في الاستيلاء على السامعين، وتوجيههم توجيها تربويا حميدا، ورشادا مجيدا.

وهذا الاهتمام الجرجاني بالفصاحة يظهر أنها مطلب ديني تربوي، ينطلق من دعوة النبي–صلى الله عليه وسلم– إليه في أكثر من موطن، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

(١) دلائل الإعجاز/ ٤٣/ ت/ محمود شاكر/ دار المدني

-رضي الله عنه- رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم: (شِرارُ أُمَّتِي الثَّرْثارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ)[1]، وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَال: كان لِعُمَرَ بنِ سَعدٍ إلى أبيهِ حاجةٌ، فقَدَّمَ بَينَ يَدَيْ حاجَتِهِ كَلامًا ممَّا يُحدِّثُ النَّاسُ يوصِلونَ، لم يَكُنْ يَسمَعُهُ، فلمَّا فرَغَ قال: يا بُنَيَّ، قد فرَغتَ مِن كَلامِكَ؟ قال: نَعَمْ. قال: ما كُنتَ مِن حاجَتِكَ أبعَدَ، ولا كُنتُ فيكَ أزهَدَ مِنِّي مُنذُ سمِعتُ كَلامَكَ هذا، سمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ: (سيَكونُ قَومٌ يَأكُلونَ بألسِنَتِهم، كما تَأكُلُ البَقَرُ مِنَ الأرضِ)[2]

واشتمل البيان النبوي الكريم على تشبيه تمثيلي طرفاه (قوم يأكلون بألسنتهم) و(تأكل البقرة من الأرض) ليرسم لهم صورة منفرة من هذا السلوك المشين، فهم جعلوا اكتسابهم بألسنتهم التي تشبه صورة البقر التي تتوسل بلسانها الأكل من الاحتشاش، ومسئولية البلاغي الإفادة من طاقات علم البلاغة وأولها الفصاحة والبلاغة في توجيه القراء أو الطلاب إلى أن المتكلم يتحمل مسئولية ما يصدر منه من كلمات إن خيرا وإن شرا.

وقد أفاد الإمام مما ذكره السابقون، وبنى عليه، فالجاحظ يقول: (وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكان الله عزّ وجلّ قد ألبسه من الجلالة، وغشّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطّبع، بعيدا من الاستكراه، ومنزّها عن الاختلال مصونا عن التكلف: صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فَصَلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت من قائلها على هذه الصفة: أصحبها الله من التوفيق ومَنَحَها من التأييد، ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها عقول الجَهَلَة)[3]

---

(١) صحيح الجامع الصغير/ الألباني/ الرقم : ٣٧٠٤/ المكتب الإسلامي

(٢) أخرجه أحمد (١٥١٧) واللفظ له/ ت/ شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد/ مؤسسة الرسالة

(٣) البيان والتبيين/ الجاحظ/ ٥٨/ الشركة اللبنانية للكتاب ١٩٦٨م

وإذا عرفنا أن الفصاحة والبلاغة عنده مترادفتان، فإن قوله السابق يضعنا في نهج البلاغة التربوية المكسبة للفضائل ومعالي الأمور، حيث جمع بين توفيق الله تعالى للقائل واستجابة المتلقي لما يدعى إليه، وبين شرف المعنى وبلاغة اللفظ وصحة الطبع، وبين نية صاحبه وتقواه، وكانت نتيجة ذلك تأثير الكلام في النفوس تأثير الغيث في التربة الكريمة، وكلامه دقيق في هذا التشبيه الفائق: (صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة)

وبناء صورته البيانية على الفعل ومفعوله المطلق (صنع صنيع) واصطفاء (الغيث) وهو النافع أينما وقع، وتعميق الصورة -باختيار (التربة الكريمة) ليكون الغيث أكثر نفعا، وأعظم أثرا- ذو دلالة قوية جامعة بأن تأثير الكلام بشروطه السابقة كتأثير الغيث في التربة الكريمة خاصة.

وهذا منه كاشف عن خطورة تأثير الكلام، فنفعه إن اختير بذوق وعناية عظيم في نفوس المتلقين، وسلبي سلبية خطيرة إذا خرج عن الذوق والتقوى، وهذه الصورة منسولة من الظلال الوارفة للبيانين الكريمين، فقد ذكر اللسان بأثره في البيان القرآني ستا وعشرين مرة في خمس وعشرين آية[١]، وكانت أكثر مواقعه تحذيرا من خطورة ما يصدر عنه، ودعوة للتهذيب والتربية والتوجيه والتثقيف.

وكان لتعريف الخطيب لبلاغة الكلام: (مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته)[٢]قبس آخر في التربية والتوجيه، بأن يكون الكلام مناسبا للمقام الوارد فيه، وهي تربية ذوقية عالية، تحفظ للإنسان كرامته ووجاهته، فالذي يجلس مجلسا ويتكلم بما لا يتسق والحال الذي هو فيه، ويهيم في كل واد مثرثرا هارفا بما لا يعرف، فإن انحطاط منزلته وتقليل شأنه أمر واقع لا محالة. وهذا ما لا تقبله النفوس المسلمة الشريفة.

---

(١) ينظر/ اللسان في البيان الحكيم-موقعاً ودلالة دراسة بلاغية تحليلية/ للباحث/ حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية-العدد السادس والعشرون-المجلد الأول-١٤٣١هـ-٢٠١٠م

(٢) الإيضاح/ ٢٠

وهذه التربية لا تدرك إلا بالتوجيه والتصحيح منذ النشأة ونعومة الأظافر، ومن هنا تكون البلاغة قد أسدت للأمة خدمة تربوية فائقة، بتحصين المجتمع من زلل الكلام وانحطاطه وسوء المنقلب، بامتلاك المكْتَسِب لهذا العلم قدرة التمييز بين الكلام الرديء والجيد، أو القبيح والحسن، وتقييمه وتقويمه.

الملامح التربوية في علم المعاني:

هذا العلم تتجلى فيه ظاهرة الحجاج ومراعاة المخاطب والاهتمام به والعمل على تغيير قناعاته، وهذا الاهتمام يوجب على المبدع أو المتحدث أن يكون دقيقا في توجيه الحديث إلى الآخر، وتربية إحساسه الراقي في الحديث مع غيره، وألا يسيء فيما يحدث به المتلقين، فهو علم يؤسس لهذه القيمة التربوية العالية، وتبرق لنا هذه القيمة من تعريف الخطيب لعلم المعاني بأنه (علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال)[١]

فمعرفة هذه الأصول والقواعد الخاصة باللفظ العربي حث على قيمة طلب العلم، التي تفتح الطريق لكل القيم، وتؤسس لكل خير وفضيلة، ثم حدد الهدف وهو رعاية حال المخاطب، (فذكاء المخاطب حال تقتضي إيجاز القول، فإذا أوجزت في خطابه وكان كلامك مطابقًا لمقتضى الحال، وغباوته حال تقتضي الإطناب والإطالة — فإذا جاء كلامك في مخاطبته مطنبًا فهو مطابق لمقتضى الحال، ويكون كلامك في الحالين بليغًا، ولو أنك عكست لانتفت من كلامك صفة البلاغة)[٢] ورقي حساسية المتكلم تجاه المناسبات والأحوال، بحيث يأتي حديثه وفق الغرض الذي سيق له، تربية عالية، وقيمة سامية، لا تتأتى إلا بوعي وفطنة.

ولذلك جاءت أبواب علم المعاني الثمانية لتؤكد هذه القيم، وتعلي من شأن مكتسب هذه السمات البلاغية المتحضرة، ويمكننا إدراك ذلك بمعرفة الفرق الجلي الذي لا يخفى بين علم النحو وعلم المعاني، فالنحو عند إمام البلاغيين لا (يهتم

---

(١) الإيضاح/ ٢٣

(٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع/ السيد أحمد الهامشي/ ٣٤/ دار الفكر بيروت لبنان

بالتركيب الساذج العادي للعبارة، قدر ما يعني مستوى أدق وأرقى، يلامس مجال البلاغة بما هي رؤية تتجاوز مستوى الخطأ والصواب، لتنظر في القيم الجمالية والسمات الإبداعية للتركيب)(١)

فالنحوي مشغول بصحة التركيب، لتتحصل كمال الفائدة من وراء صحة إعرابه، بينما البلاغي يبحث عما وراء التركيب من دلالات خاصة، وظلال وارفة، وايحاءات مديدة، وإشارات دقيقة، تحقق القيم الجمالية والإيمانية في نفوس المتلقين. يقول العلوي: (النحوي وصاحب علم المعاني وإن اشتركا في تعلقهما بالألفاظ المركبة، لكن نظر أحدهما مخالف لنظر الآخر، فالنحوي ينظر في التركيب من أجل تحصيل الإعراب لتحصل كمال الفائدة، وصاحب علم المعاني ينظر في دلالته الخاصة وهو ما يحل عند التركيب من بلاغة المعاني، وبلوغها في أقصى المراتب)(٢)

وهذا الوعي الذي نبه إليه البلاغيون يكشف عن إدراك دور علم المعاني في استنطاق التراكيب؛ لتستبين دقائق المعاني الكامنة وراءها، وتبرز القيم التي تقيم الناس على جادة الحياة، وتحملهم مسئولياتهم تجاه النفس والآخر والحياة والكون.

وبيِّنٌ أن البحث عن الجمال والتنقير عنه من مقاصد أهل العلم والفكر ومن بينهم علماء البلاغة، فهل ينكر أحد اعتناء الأساليب البلاغية ومكوناتها الجزئية بالقيم الجمالية والإيمانية وبيان أسباب الهداية والحق اعتناء كبيرا ومثيرا؟

لا، حيث تتجلى هذه العناية فيما سجله أئمة البلاغة وباحثوها منذ النشأة إلى عصرنا هذا، والدارس يبصر ذلك في التأصيل وفي اختيار الشواهد وفي الشرح والتأويل، ورحم الله العلامة مصطفى صادق الرافعي الذي قال: وكانت البلاغة من أشهر ما عرف به العرب في العلوم والفنون حتى صارت من أرقى

---

(١) البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع/ د/ مسعود بودوخة/ ٣٨/ دار الكتب العلمية

(٢) الطراز المتضمن أسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز/ يحيى بن حمزة العلوي/ ج١/ ص١٧، ١٨/ مطبعة المقتطف – مصر ١٢٢٢ه، ١٩١٤م

مدنياتهم، وأوسع معارفهم، فالحكمة الإلهية التي جعلت من قديم مدنية الفنون في أيدي الصينين، ومدنية العلوم في رؤوس اليونانيين هي التي خصصت مدنية اللغات في ألسنة العرب.(١) وبذلك كانت من أرقى وسائلهم في نشر الوعي والدعوة إلى الخير والحق والقيم الإنسانية النبيلة.

وكانت عنايتهم موجهة إلى تخير الكلمات والأساليب المقررة للفضائل والقيم وتأكيدها في نفوس المخاطبين، سأل سائل عمرو بن عبيد ذات مرة: ما البلاغة؟ فأجابه: ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك، وعواقب غيك! .

قال السائل: ليس هذا أريد! قال عمرو: فكأنك إنما تريد تخير لفظ في حسن إفهام؟ ــ قال : نعم، قال عمرو: إنك إذا أردت تقرير حجة الله في قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة، كنت قد أُتيت فصل الخطاب، واستوجبت على الله جزيل الثواب(٢)، وبهذا القول المرشد تتقرر الصلة الوثيقة بين مفهوم البلاغة بأساليبها المتنوعة والحق والهدى والأخلاق والخير وجمال القيم الإنسانية الراقية، والصلة جلية بينه وبين قول الجاحظ السابق.

وقد كان للمخاطب مكانة كبيرة في البلاغة العربية، لا تقل عن مكانة المتكلم، لما له من دور فعال في صناعة الأدب وصياغته وتوجيهه(٣)، وهذا بين في قولهم في تعريفها (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) أي حال المخاطب. وهذا يكشف لنا أن من أعلى مقاصد الأساليب البلاغية إقناع المخاطب بحجج وبراهين تدفعه إلى القبول وتغيير قناعاته.

---

(١) تاريخ آداب العرب/ ٢١٧ وما بعده بتصرف/ بيروت.

(٢) الأسس الجمالية في النقد العربي/ عز الدين إسماعيل/ ٨٨ ــ ٩٠ بتصرف/ ط١ القاهرة.

(٣) ينظر/ أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية-تأسيس نحو النص-/ محمد الشاوش/ ٩٠٥/ ط١/ كلية الآداب جامعة منوبة- تونس ٢٠٠١م

بل إن مساق البحث يقتضي أن نسجل هنا أن هذه المكانة الرفيعة للمخاطب قد تنبه إليها أئمة اللغة الأوائل قبل مرحلة نشأة البلاغة وتطورها، وألمحوا للأبعاد النفسية للمخاطب، فهذا بشر بن المعتمر يخط في صحيفته: (ينبغي على المتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازي بينها وبين أقدار المستمعين وأقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما)[١] وهذا توجيه وتربية للمتكلمين أن يعرفوا عقول المخاطبين وأقدارهم، حتى يتمكنوا من التأثير فيهم، وخاصة من يتصدى لتوجيه الناس إلى الحق والهدى.

وها هو الجاحظ يكاد أن (يجعل من رعاية السامع منبعا لكل آرائه البلاغية)[٢]، كما جعل الحالة النفسية أو المزاجية للسامع ومدى استعداده للتلقي مناط إقباله وتفاعله مع ما يلقى على مسامعه، فيقول: (إذا لم يكن المستمعُ أحرصَ على الاستماع من القائل على القول، لم يبُلْغ القائلُ في منطقه، وكان النُّقصان الداخلُ على قوله بقدْر الخَلَّة بالاستماع منه)[٣] فالمتلقي ركن ركين في النظرية البلاغية العربية، مما يدعو المتكلم لمراعاته والاهتمام بالألفاظ والأساليب المشتملة على الأدوات والآليات ذات الإقناع والإثارة والتهييج.

وهذا ما زيد تفصيلا في تعريف علم المعاني فيما بعد، يقول الخطيب: (هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال)[٤] ومعنى مقتضى الحال (أن يراعي المتكلم قدر مخاطبيه ومنزلتهم الاجتماعية. فالقول لا يقنع إذا لم يكن موجها أي: مكيفا بحسب الحاجات الخاصة التي تقتضيها فئات

---

(١) البيان والتبيين/ ١/ ١٧٥/ ت/ عبد السلام هارون ط٤/ دار الفكر بيروت، وينظر/ العمدة في محاسن الشعروآدابه ونقده/ ابن رشيق القيرواني/١/ ١٩١/ ت/ عبد الحميد هنداوي/ ط١ المكتبة العصرية/ صيدا بيروت ٢٠٠١م

(٢) المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية/ جمال الحضري/ ٢٢٧/ مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع/ ط١ بيروت لبنان٢٠١٠م

(٣) البيان والتبيين/ الجاحظ/ ٢/ ٢١٥ ت/ عبد السلام محمد هارون/ مؤسسة الخانجي/ ط ٣/ القاهرة

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة/ ٢٣/ ط١/ دار الكتب العلمية

المخاطبين. فالوضعيات تختلف والمراتب تتباين والأفهام تتفاوت)[١]، فعلم المعاني تتظاهر فيه أبعاد التواصلية المثيرة بين المتكلم والمخاطب، والاهتمام بمعالم إثارة وجدانه وتحريك فكره بما تطيقه لغة المتكلم وتبنى عليه.

ونجد ذلك في التواصلية المقنعة في الأسلوب الخبري وأضربه وخروجه على خلاف مقتضى الظاهر، ويكفينا هنا ما جاء في رواية أبي إسحاق الكندي مع أبي العباس المبرد، حيث ظن الكندي أن ثمة حشوا في قولهم: عبد الله قائم- إن عبد الله قائم – إن عبد الله لقائم. والمعنى -في ظنه- واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفةٌ لاختلافِ الألفاظِ، فقولُهم: "عبدُ الله قائمٌ"، إخبار عن قيامه وقولهم: "إن عبد الله قائمٌ"، جوابٌ عن سؤالِ سائلٍ وقوله: "إنَّ عبدَ اللهِ لقائمٌ"، جوابٌ عن إنكارِ مُنْكِرٍ قيامَهُ، فقد تَكرَرَّت الألفاظُ لتكرُّرِ المعاني[٢]. فالمعاني مختلفة بحسب قصد المتكلم وحال المخاطب، واقتضى ذلك سوق الكلام في صورة مختلفة. مما يجعل البلاغة ميدانا خصبا للتوجيه المقنع، وأسلوبا تربويا مثيرا. لعنايتها بأحوال المخاطبين وبوسائل إقناعهم، لذلك كان (عبد الله قائم) موجها لخالي الذهن، و(إن عبد الله قائم) للمتردد تجاه القضية، و(إن عبد الله لقائم) معني بالمنكرين لها.

ونجد ذلك أيضا في الأساليب الإنشائية أمرا ونهيا واستفهاما وغيرها في تجليات معانيها الحقيقية والمجازية، والتي (تشتمل على طائفة من الصيغ والأدوات التي يريد المتكلم تضمينها كلامه كالتقرير والاستفهام والتمني والإخبار والنفي والإثبات....)[٣] فالتدقيق في أسلوب النفي مع الفعل (أبرح) في البيان القرآني الحكيم يكشف لنا خصوصية التراكيب وبصمتها الخاصة التي تسيطر بها على المعنى الذي يملك القدرة على التأثير في المتلقين، وبرح فيه معنى النفي،

---

(١) خطاب المناظرة في التراث العربي الإسلامي (مقاربة لآليات بلاغة الإقناع) عبد اللطيف عادل/ ٥٢، ٥٢/ أطروحة بكلية الآداب – جامعة القاضي عياض-مراقش.

(٢) دلائل الإعجاز/ ٣١٥

(٣) التداولية عند العلماء العرب/ مسعود صحراوي/ ٦، وينظر/ نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب/ طالب سيد هاشم الطبطبائي/ ٢/ جامعة الكويت ١٩٩٤م

ونفي النفي إثبات[١]. وجاء مع (لن) التي تفيد تأكيد النفي، ومرة مع (لا) المفيدة للنفي دون تأكيد.[٢].

ففي قصة سيدنا يوسف عليه السلام ورد مرة في قوله تعالى: (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠ يوسف﴾ وصيغة النهي تسع المستقبل كله، ليكتشف المتلقي ما يعتمل في نفس الأخ الكبير من حرج وضيق جعلاه عازما ومصمما على المكث في مكانه حتى يأذن له أبوه، وحتى يشعر إخوته بما في نفسه أكد النفي بمجيء (لن)

وأما في قصة سيدنا موسى عليه السلام فقد وردت مرتين: الأولى: في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠ الكهف﴾ وصيغة (لا أبرح) تظهر عزمه على مواصلة رحلته للقاء العبد الصالح في المكان الذي حدد له، وإنما جيء ب (لا) وهي أقل تأكيدا من (لن) ليتعرف المتلقي على النفس الموسوية الكبيرة ذات العزم القوي، والإرادة الحاسمة الفاعلة، وأن هذا مما لا يحتاج إلى تأكيد.

الثانية: في قوله عن قوم موسى عليه السلام: (قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١ طه﴾ ففي سياق اتخاذهم العجل من دون الله معبودا، ومحاولات نبي الله هارون إرجاعهم عن ضلالهم في غياب أخيه موسى عليهما السلام، أكدوا عزمهم وقرروا تصميمهم بالبقاء عليه عاكفين حتى يعود إليهم موسى عليه السلام، وهذه النفوس النافرة من الحق، والراغبة في الباطل تشعر دائما بالصغار والضعف فتحايلوا على ذلك بتأكيد النفي ب (لن) وكأن

---

(١) مفردات غريب القرآن/ الراغب/ ٤٢/ دفتر نشر الكتاب/ ط٢ ١٤٠٤ه

(٢) ينظر/ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ الزمخشري/ ١١٠٦/ دار المعرفة بيروت–لبنان ط٣ ١٤٣٠ه–٢٠٠٩م، والبحر المحيط في التفسير/ أبو حيان الأندلسي/ ١٠/ ١٧٣/ ت/ صدقي محمد جميل/ دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠ ه

المتلقي يشعر بخذلان نفوسهم، ويكشف ستر ذلة جوانيتهم من هذا الصيغة الكاشفة.

فخصوصية الفعل مع خصوصية الأداة النافية لم يأت في البيان القرآني إلا ثلاث مرات، وفي سياق القصص، ليلقي بظلاله على أحداث كل قصة في سياقه، كاشفا عن النفوس المتكلمة ومبينا عما يعتمل فيها، ليكون المتلقي على بينة من ذلك، وأن النفوس التي في موقف الخجل والضيق، أو في موقف الصغار والانحراف تلجأ لتأكيد النفي، وأما النفوس الزكية العالية الفاعلة العازمة الحاسمة فيكفيها الدلالة على النفي، لنستبين سبيلها، ونعرف عزمها.

وفي هذا ملمح تربوي جليل، يدعو البلاغيين بخاصة والمتكلمين بعامة لدراسة أحوال المخاطبين وتوجهاتهم والوقوف على ثقافتهم، والعمل على رعاية هذه الأحوال، وأن يستعمل من الكلمات والتراكيب واستدعاء الشواهد كذلك ما يناسبهم في كل موقف من هذه المواقف، لا سيما وأن مخاطب اليوم ليس على القدر البلاغي للمخاطب الذي أورده البيان القرآني ... مما يوجب على متكلم اليوم أن يكون حريصا على أن يرتفع بمخاطبه إلى مصاف النماذج التي أوردها الذكر الحكيم.

وبذلك يتأكد الجانب المؤثر في المتلقين، والمنشئ توجيها تربويا، بإدراك ما وراء الأساليب من دقة المعاني وقوتها وتوهجها، فالأمر عن طريق الاستفهام (قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (الأنبياء/ ١٠٨) غير الأمر بصيغته المعروفة. وذلك لاستدعاء الاستفهام التفكير لمعرفة ما يراد به، ثم بعد تلك العملية العقلية يدرك المتلقي أن المراء (أسلموا) فيقر المعنى في نفسه ويتأكد لديه، وعادة النفس إذا حصلت على شيء بعد تعب ونصب فإنها تتمسك به ولا تفلته.

وإذا اعتبرنا وجود هل ونزعتها إلى الجملة الفعلية، فإن دخولها على الاسمية-هنا- أدل على طلب حصول الإسلام من قولك: فهل تسلمون؟ أو فهل أنتم تسلمون؟ لأن الجملة الاسمية تفيد التوكيد، وتدل على معنى أوفى مما تدل

عليه الجملة الفعلية، لأن الجملة الاسمية تبرز ما كان يدل على الحدوث والتجديد في معرض الثابت المستمر أقوى في الدلالة على الاهتمام بشأنه وكمال العناية به. وفي هذا ملمح دقيق يربي الذائقة البيانية في نفوس البلاغيين والمتكلمين ويمدهم بالقدرة على استعمال الأساليب المتسقة مع أحوال المخاطبين، لتؤدي دورها البلاغي التربوي الموجه.

كما تظهر الملامح التربوية في أحوال المسند والمسند إليه وقصد رعاية السامع وأحواله من السرور أو الحزن أو الفطنة أو الغباء. وذلك كله لرعاية مقتضى الحال، حتى يكون للكلام أثره القوي في النفوس وحسن توجيهها، فتعريف المسند إليه بالاسم الموصول (الذي) له من الفوائد ما يميزه عن غيره، يقول الإمام عبد القاهر: (اعلم أن لك في (الذي) علما كثيرا، وأسرارا جمة، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس، وتثلج الصدر، بما يفضي بك إليه من اليقين، ويؤديه إليك من حسن التبيين)[1]، ومجيئه في قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام :١].يبرز سعة ملكه سبحانه، وما يتطلبه من الحمد والثناء الثابت الدائم عليه جل جلاله، وسره البلاغي وروده مبهما، ثم ما يقتضيه من كد الذهن لتجلية هذا الإبهام ب الوقوف على ما تشتمل عليه جملة الصلة، فيتأكد المعنى في نفوس المتلقين، وينتج عنه انطلاق ألسنتهم بالثناء على الله تعالى، وعلى البلاغي مراعاة هذه الأوجه البلاغية والتركيز عليها في تربية المخاطبين وتوجيههم.

وأما أسلوب القصر فإن الملامح التربوية كثيرة فيه، حيث تتجلى أسراره البلاغية مع الإيجاز الذي يعد ركنا من أعظم أركان البلاغة العربية، واستعمال أساليبه وطرقه إنما تكون حسب أحوال المخاطبين، وعلى البلاغيين والمتكلمين عامة التدقيق في أساليبهم وأن تكون وفق ما يقتضيه المقام، لتؤتي التربية ثمرتها، فمثلا (إنما) تكون في المعنى الذي لا ينكره المخاطب، فهي في قوله

(١) دلائل الإعجاز/ ١٩٩

تعالى: (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) يس/ ١١، وفي قوله: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا) النازعات/ ٤٥، تذكير بأمر معلوم وهو (أن الإنذار إنما يكون إنذارا ويكون له تأثير، إذا كان مع من يؤمن بالله ويخشاه ويصدق بالبعث والساعة، فأما الكافر الجاهل، فالإنذار وترك الإنذار معه واحد)[١] وبمثل هذا يعتبر القائمون للتحليل البلاغي، والمتصدرون لأمر الدعوة والخطابة في الناس، بأن لكل حال ما يناسبه، وأن لكل مقام ما يتسق معه؛ لكي تؤتي البلاغة ثمرتها، وتحقق التربية غايتها.

ثم تمر بنا مسألة الفصل والوصل بمقاماتها التي تقتضي مجيء الواو أو تركها كإرث عربي قديم، كانت السليقة العربية تجريه في الكلام على نحو تلقائي فطري بعيدا عن المنهجية العقلية الجامدة، ثم تناوله البلاغيون تحبيرا وتفصيلا، لدوره في اتصال الأساليب وتلاحمها[٢]، مما يجعل بين النص وبين نفوس المتلقين تواصلا مؤثرا، فتبدو أسراره التربوية في كونه يعلي من شأن الحق والقيم، ويكشف قبح الضلال ومنازعه وخباثته، وهذا ما استدعى الإمام عبد القاهر -رحمه الله- أن يلقي بثقله العلمي وما يحمله من طاقات في دروب هذا الباب العذراء، ليفتح مغاليقه للأمة من بعده، فيقول في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ* خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) البقرة/ ٦-٧، قوله: (لا يؤمنون) تأكيد لقوله: (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) وقوله: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) تأكيد ثان أبلغ من الأول، لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر، كان غاية في الجهل، وكان مطبوعا على قلبه لا محالة)[٣]، فترك الواو جلى هذه المعاني وأبرزها، وساعد على هذا التحليل للفصل

---

(١) دلائل الإعجاز/ ٣٣٠، ٣٣١

(٢) ينظر/ في البلاغة القرآنية-أسرار الفصل والوصل/ د/ صباح عبيد دراز/ ١٢/ ط١/ مطبعة الأمانة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م

(٣) دلائل الإعجاز/ ٢٢٨

بين جمل الآيتين تحليلا مؤثرا مربيا، ليكون هذا التحليل وما يماثله سبيلا لتوجيه المخاطبين وإرشادهم إلى الحق والصواب، وتحذيرهم من الغفلة المؤدية إلى الطبع على القلوب.

وتتجلى في الإطناب والمساواة والإيجاز الحكمة والحنكة والتركيز في معرفة ما يتطلبه المعنى أو المقام والحال، فهذا يتطلب إطالة الكلام، وذاك يقتضي المساواة بأن يكون الكلام طولا وقصرا متساويان وفق حاجة المقام، وبعض المقامات تفرض إيجازا في مخاطبة السامعين، كمن يخاطب مسئولا لا يملك وفرة الوقت ليبذله فيما لا فائدة منه، وخطاب الملوك يغاير خطاب العامة.

وبهذا يتبين لنا أن علم المعاني يملك من الأدوات التي تجعله معينا لكل قاصد إلى التوجيه والتربية كما هو الهدف العلي من البيان القرآني والنبوي والإنساني العالي، حيث إنه يقدر على أن يعمل على وضوح دلالة الحديث – وعلى تنوع صياغة الجملة ووضوح معناها–ويقوم بدور فعال في إقناع المُخاطَب وحسن توجيهه – ويعين على البيان وقوة التأثير، فيجعل من الرسائل الخطابية معاون الحق والهدى، ومعاول هدم الشهوات والباطل.

الملامح التربوية في الصور البيانية:

يعد علم البيان من علوم البلاغة الكاشفة عن محاسن اللغة العربية وجمالها، وذلك لطرقه التعبيرية المتنوعة في البيان عن المعنى الواحد، مما يعلي من شأنه في مجال التأثير والتغيير في المجال التربوي، فقد عرفه الخطيب بأنه: (علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه)[١]

فهو يعين المتلقي للبيانين الكريمين بصفة خاصة وللبيان الإنساني بصفة عامة على حسن الفهم والامتثال، ويمنح المتكلم القدرة على التعبير باستعمال طرق بيانية إبداعية، تساعد على الإقناع والتفهيم وتغيير القناعات، والدعوة إلى القيم وتثبيتها، والسمو بالغرائز، والارتقاء بالإنسان في كل عصر ومصر، ما يجعله شقيق علم المعاني في إثراء الأساليب التربوية والتوجيه إلى اكتساب القيم

(١) الإيضاح/ ١٦٣

الجمالية الإيمانية والأخلاقية، لما يضيفه إلى الكلمات من جمال وظلال ومعان دقيقة مؤثرة في إطار الصورة وظلالها، ما يعني أنه يساعد المربي في إيصال فكرته إلى المتلقي في أبهى صورة وأجمل أسلوب، لأن من الناس من ينبهر بالتصاوير أكثر من انبهاره بالكلام العاري، ومنهم من تعمل فيه الصورة – على وجازة تعبيرها– عملا، وتترك فيه – مع قلة كلماتها– أثرا عميقا لا تستطيعه الخطب الطويلة والمواعظ المتتالية، ومن ثم ارتكز عليها البيان القرآني والبيان النبوي فيما تكون فيه الصورة موحية ومثيرة ومؤثرة، لا سيما فيما يتصل بالدار الآخرة وما فيها من مجازاة على الأعمال ثوابا أو عقابا. ويؤيد ذلك ما ذكره البلاغيون عن أغراض الصورة الكثيرة وفوائدها العديدة، والذي يعنينا التركيز عليه منها هو تأثيرها العميق في نفوس المتلقين، وإثارتها وتشويقها له بجمال الأسلوب وحسن التصوير حيث تتقرر حينئذ الدروس التربوية، وتبرز القيم النبيلة، لأنه كما يقول أبو هلال العسكري:(يزيد المعنى وضوحا، ويكسبه تأكيدا)[1]، وكما حدد ابن الأثير الفوائد الثلاثة للصورة التشبيهية: المبالغة والبيان والإيجاز[2].

وللإمام عبد القاهر الجرجاني سبق في بيان الآثار التربوية الجمالية للتمثيل بما له من أثر عميق في نفوس المتلقين، في وقت لم يكن علم البيان قد استقر على ما هو عليه، فقد كان في طور المنشأ، وكانت رؤية الجرجاني قائمة على أن التمثيل إنما يمثل الأمور العقلية بجعلها شاخصة ماثلة محسوسة، وذلك لجعله التأويل طريقا لالتماس وجه الشبه، وبين أثره في تحريك النفوس قائلا: (واعلم أنّ مما اتفق العقلاءُ عليه، أن التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبّهةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك

(١) الصناعتين/ ٢٤٣

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر/١/ ٣٩٦/ ت/ محمد محي الدين عبد الحميد/ مطبعة البابي الحلبي/مصر ١٩٣٦م

النُفوس لها، ودعا القُلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلَفاً، وقَسَر الطِّباع على أن تُعطيها محبّة وشَغَفاً)[١] وللتمثيل عنده صورتان: أن يأتي عقب المعاني، أو تعرض هي فيه ابتداء، وفي كل تراه مؤثرا ومثيرا ولافتا، يملك قدرة على تحريك النفوس لما يلقى عليها.

وكعادة الإمام في بناء رؤاه فيذكر أثر التمثيل العميق في مواقع النصوص وأعقاب المعاني مع سوق الأمثلة مع تحليلاته المنتجة للمعرفة والبانية لعقول طلاب العلم: (فإن كان مدحاً، كان أبْهَى وأفخم، وأنبلَ في النفوسَ وأعظم، وأهزّ للعِطْف، وأسْرع للإلف، وأجلب للفَرح، وأغلب على المُمْتَدَح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغُرِّ المواهب المنائح، وأسْيَر على الألسن وأذكرَ، وأولى بأن تَعْلَقه القلوب وأجدر، وإن كان ذمّاً، كان مسُّهُ أوجعَ، ومِيسَمُه ألذع، ووقعُه أشده، وَحدُّه أحَدّ، وإن كان حِجاباً، كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبَيَانه أبْهر، وإن كان افتخاراً، كان شَأْوُه أمدّ، وشَرَفه أجَدّ، ولسانه أَلَدّ، وإن كان اعتذاراً، كان إلى القَبُول أقرب، وللقلوب أخْلَب، وللسّخائم أسلّ، ولغَرْب الغَضَبْ أفلّ، وفي عُقَد العُقود أَنْفَث، وعلى حُسن الرجوع أَبْعث، وإن كان وعظاً، كان أشْفَى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزّجر، وأجدر بأن يُجلِّيَ الغَيَاية، ويُبصِّر الغاية، ويُبرئ العليل، ويَشْفِي الغليل، وهكذا الحُكْم إذا استقريتَ فنُونَ القول وضروبَهُ، وتتبّعت أبوابَهُ وشُعوبه)[٢]

ثم تأتي الاستعارة بما لها من فوائد متنوعة، لتزيد المعنى وضوحا، وتكسبها جمالا، وتزيدها تأثيرا في نفوس المتلقين، يقول الإمام عبد القاهر عن جمال الاستعارة وفوائدها: (هي أمد ميدانا، وأشد افتنانا، وأكثر جريانا، وأعجب حسنا وإحسانا، وأوسع سعة وأبعد غورا، وأذهب نجدا في الصناعة وغورا،...وأسحر سحرا، وأملأ بكل ما يملأ صدرا، ويمتع عقلا، ويؤنس نفسا، ويفر أنسا،...

(١) أسرار البلاغة/ ١١٠

(٢) أسرار البلاغة/ ١١٥، ١١٦

ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا، وتوجب له بعد الفضل فضلا)[1] وبذلك تمكن المبدعين والبلاغيين والخطباء عامة من أسر قلوب المخاطبين، وتمكين مقاصدهم منها، وإخضاعهم للحق، وهي بذلك تبرز ملامحها التربوية التي تساعد على تحقيق القيم الإيمانية والجمالية في النفوس المسلمة، وتنفيرها من كل قبيح يسيء إليها، ويوردها موارد الهلاك في الدنيا والآخرة.

وجماع الملمح التربوي فيما سبق يبرز بصورة أوضح وأثر أعمق فيما هو مقرر عند البلاغيين من قدرة الصورة على تحسين المشبه وتزيينه في نفوس المتلقين مما يجعله يحظى بالقبول والرضا، ويلهب الحماس ويحرك الأبدان للعمل والسعي الحثيث تحقيقا للمقاصد ووصولا للغايات، فالصورة التمثيلية في قوله: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ النور/ ٣٥، تظهر جمالا وحسنا يزيد إقبال القلب على محبة الله الذي نور القلوب بما وضعه فيها من توحيد وإيمان وتقوى، وهدى الإنسان بما أودع في كونه من الكواكب المضيئة.

وكذلك تمتلك الصورة تقبيح المشبه وتشيينه في قلوب المتلقين مما يجعلها تنفر منه وتتجنب الميل إليه فتنحرف عن طريقه وتبتعد عن أسبابه، وتفطن إلى الحيل الشيطانية الداعية إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الجمعة/ ٥، وهذه الصورة تقبح من ضل على علم، وانحرف عن بينة، مما يحفظ للحق جماله، وللباطل قبحه.

وفي المجاز عموما والمرسل خاصة متسع للإبداع، والتفنن في التعبير، والتوسع في الأسلوب بما يستميل النفوس ويتمكن من القلوب، ولذا فهو باب

(١) السابق/ ٤٢

واسع للتأثير التربوي في نفوس المتلقين، يقول ابن رشيق: (والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع)[١] وعلى المتصدر للبيان ومخاطبة الناس أن يوظفه في مجال التوجيه والتربية، ليحصد من ورائه تغييرا يسر القلوب، وتقر به العيون.

ولعل في الكناية من الجوانب التربوية ما يلفت انتباه طلاب هذا العلم الشريف، ومن أعلاها تربية النفوس على الحياء والقلوب على العفة والألسنة على الطهارة، والبعد عما يؤذي المتلقي، وقد أكد على ذلك كثير من البلاغيين، فهذا أبو منصور الثعالبي يؤكد على ضرورة الترفع عما يؤذي حس المتلقي وشعوره بالبعد عما يشينه ويستهجنه[٢].

إن دلالات الكلمات والتراكيب إذا حملت صورة بيانية تزداد عمقا وسعة وظلالا، ولأجل هذه المتغيرات المؤثرة في المعاني كثرت فوائد الصور البيانة لدورها في تحبيب المعاني إلى النفوس وتقريرها في الصدور، أو في تنفير النفوس منها وإبعادها عنها، ولكل صورة موقعها الذي يقتضيه المعنى ويتطلبه، مما يجعل تأثير الصور في النفوس أعمق، ويتحقق بذلك توضيح الحقائق وتغيير قناعات المتلقين تجاهها، فتعلو الأخلاق وترتفع معالم الرشاد، وتندثر الشهوات وتنطفئ نيرانها، وتتزين البشرية بلباس التقوى.

وإن دلالة الحديد والنار في الصورة التشبيهية (جعله نارا) في قوله تعالى: (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حتى إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواحتى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) الكهف/ ٩٦، تختلف عنها في مجيئهما حقيقة، فالحديد في التشبيه الكريم صار نارا، ونار الحديد تغاير نار الحطب وغيرها. وتأثير الصورة عميق في النفوس، فهذا عبد (ذو القرنين) أتاه الله من كل شيء سببا، فأتبع سببا، مما مكنه من تحويل الحديد إلى نار، وحينئذ تستحضر الصورة

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه/ ١/ ٢٦٦/ ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد/ مطبعة السعادة ط٣ مصر ١٣٨٣ه – ١٩٦٣م

(٢) الكناية والتعريض/٥/ ت/ د/ أسامة البحيري/ مطبعة الخانجي/ ط٢ ١٩٩٧م

ملمحا تربويا جليلا، حيث يتبادر إلى الذهن سؤال لا تطيقه الجبال مضمونه: فكيف تكون آثار قدرة الله تعالى بسعتها وشمولها وسلطانها؟ وكيف تكون ناره يوم القيامة التي أعدت للكافرين؟ والتأثير التربوي لمثل هذه التساؤلات المستمدة من ظلال الصورة التشبيهية (جعله نارا) قوي ومثير وقادر على تغيير النفوس إلى الفضائل والمكارم تغييرا كبيرا.

ومثل هذا التعبير نتلبث أمامه في هاتين الصورتين الجليلتين في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ) (إبراهيم ٢٤-٢٦) فكلمة غاية في الحسن والجمال، وكلمة بلغت مبلغا في السوء والقبح، وكان ذلك عن طريق أحد وسائل علم البيان.

لقد أظهر النظم بصورتيه ما عُنِي به الإسلام في جمال السلوك الإنساني في القول أو في قبحه، وجعل مفتاح كل خير كلمة، ومفتاح كل شر كلمة، فلباس الإسلام كلمة، والمروق منه كلمة، وميثاق الزواج الغليظ كلمة، والخروج البغيض منه كلمة، ومن آيات المنافق كلمة، والطريق إلى سقر كلمة، والقول الحسن مع الناس كلمة، والامتزاج مع الصادقين كلمة، وتبشير أهل الحق كلمة، والتنفير كلمة وتلبيس أمر الدين على الناس والتغرير بهم كلمة، وسيد الشهداء كلمة، وكلمة إبليس الخاتمة يوم القيامة كلمة.

وأصبحت دلالة الكلمة الحسنة واسعة تبدأ من كلمة التوحيد، ثم تشمل كل تسبيحة أو تحميدة، أو مثنية على خير ومعينة على فضل، إلى تلك الكلمات التي توحد الصفوف وتقوي العلاقات وتقدم منفعة للأمة. والكلمة الخبيثة تبدأ بكلمات الكفر والشرك، والدعوة إليهما، ثم كل كلمة كاذبة، باطلة، قبيحة تقتل في النفوس كل طيب، وبهذه الدلالة الواسعة يعين التشبيه المحلل البلاغي التربوي، أن يعين المتلقين على تهذيب ألسنتهم وتحقيق تقواها، وأن يؤكد لهم تحملهم المسئولية الذاتية عن كل ما تتحرك به ألسنتهم إن خيرا وإن شرا.

ونتوقف عند قيمة من قيم الجمال والتربية، عند الإمام عبد القاهر وهو اهتمامه بأثر المتلقي في الصورة، وهذا أمر مهم في توجيه المتلقين وإرشادهم، ونمثل بتعليقه على قول البحتري:

دَانٍ إلي أيْدِي العُفَاةِ وشَاسِعٌ ** عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النَّدَى وضَرِيبِ

كالبَدرِ أَفْرَطَ في العُلُوِّ وضوؤُهُ ** للعُصْبَةِ السَّارينَ جِدّ قَرِيبِ

فيقول: (وفكِّر في حالك وحالِ المعنى معك، وأنت في البيت الأول لم تَنْتَهِ إلى الثاني ولم تتدبّر نُصرته إيّاه، وتمثيله له فيما يُملي على الإنسان عيناه، ويؤَدِّي إليه ناظراه، ثم قِسْهُما على الحال وقد وقفتَ عليه، وتأمّلتَ طَرَفَيْه، فإنك تعلم بُعْد ما بين حالتيك، وشدّة تَفَاوتهما في تمكُّن المعنى لديك، وتحبُّبِه إليك، ونُبْلِه في نفسك، وتوفيرِه لأُنْسِك، وتحكُم لي بالصدق فيما قلت، والحقّ فيما ادّعيتُ)(١)

ومن عجب أن تواصلية الإمام مع قارئ كتابه قوية، ولغة الخطاب بينهما بارزة غالبة من ذلك (انظر/ فكر/ حالك/ أنت/ تنته/ تتدبر/ قسهما/ وقفتَ عليه/ تأملت طرفيه/ فإنك تعلم/ حالتيك/ لديك/ تحببه إليك/ نبله في نفسك/ أنسك/ تحكم) وهو بهذا يسوق شاهدا من قوله على أهمية رعاية المخاطب والاهتمام به، بل جعله قرين المبدع في جماليات النصوص وإبداعاتها.

ولذلك (حظيت إشارات الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى دور المتلقي في تَمَثُّل الصورة باهتمام الدرس النقدي الحديث، إذ اهتمّ النقاد بدور المتلقي في فهم النص والإبداع فيه، عن طريق النظرة المتأملة في النص التي تتجاوز ظاهر الألفاظ إلى روحها وإيحاءاتها، فغدا لديهم ما يُعرف بنظرية التلقي التي أخذت تتطور في الفكر النقدي، فأصبح النص يختلف باختلاف القارئ المتلقي، فكل متلقٍ يخلع على النص من ذاته وعوالمها الخاصة، فيغدو مبدعا جديدا)(٢)

---

(١) أسرار البلاغة/ ١١٦

(٢) القيم التربوية والجمالية في مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني/ د/ محمد عبد الله أبو الرب، د/ عبد العزيز موسى درويش/ ١٩٨/ مجلة بحوث التربية النوعية- جامعة المنصورة - عدد خاص ٢٠- فبراير ٢٠١١م

وهذه من فرائد الإمام التي لم تأخذ حقها شرحا وبيانا ممن جاء بعده من أئمة البلاغة وسادتها، مع خطورتها في المجال التربوي والتوجيهي وهو الميدان الذي يحتاج إلى علم البلاغة وأسراره. ولم تعد عملية الإنتاج الإبداعي قاصرة على المؤلف وحده، وإنما أصبح المتلقي مشاركا ودوره فاعلا في هذه العملية المبدعة(١)، وهذه من الآثار التربوية المهمة جدا في ارتقاء المتكلم بذوق المخاطب وبث الثقة في نفسه ودفعه إلى التجاوب مع الكلام والخروج منه بما يدعم وجهة نظر المربي، وتحقيق مقصده.

بل إن المدقق يبصر أن الإمام راعى الفروق الفردية بين المتلقين، فهم بين اثنين: طبقة العامة، وطبقة ذوي العقول الناظرة، أو اللبيب اليقظ والمضعوف المغفل، ويسوق ذلك مع شاهده: (وأما ما تقوَى فيه الحاجة إلى التأوّل حتى لا يُعرَف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع، فنحو قول كَعْبٍ الأشقريّ، وقد أوفده المهلّب على الحجّاج، فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس، فسأله في آخر القصّة قال: فكيف كان بنو المهلب فيهم؟ قال: كانوا حُماة السَرْح نهاراً، فإذا أليَلُوا ففرسان البَيَات، قال: فأيُّهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلْقة المفرغة لا يُدرَى أين طَرَفاها، فهذا كما ترى ظاهر الأمر في فَقْره إلى فضل الرِّفق به والنظر، ألا ترى أنه لا يفهمه حقّ فَهْمه إلا من له ذهن ونَظَرٌ يرتفع به عن طبقة العامّة؛ وليس كذلك تشبيه الحجّة بالشمس، فإنه كالمشتركِ البَيّن الاشتراك، حتى يستوي في معرفته، اللبيبُ واليقِظُ والمضعوفُ المغفّل)(٢) فهو يفرق بين العجل الضعيف النظر والتأمل الذي يقف عند ظاهر النص، وبين الصبور المتوقد الذهن المدقق الحاد التأمل الذي يغوص في النص، ويتفاعل معه، ويفليه، ويفتشه، لينال ثمرة أسراره ويكتشف خبيئاته، وهذا هو الذي أولاه الإمام اهتماما ورعاية وأسكب عليه قصائد مدحه، وألبسه قلائد ثنائه.

---

(١) ينظر/ من سلطة النص إلى سلطة القارئ/ فضل ثامر/ ٩٨/ ع ٤٩/ مجلة الفكر العربي.

(٢) أسرار البلاغة/ ٩٤

ومن صور الاستعارة التي تكشف عن ملامحها التربوية التي يجب أن تراعى عند البلاغيين والخطباء والقائمين على التربية والتوجيه، قوله تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) البقرة/ ٢٥٧، وفي قوله:(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) الأحزاب/ ٤٣، تختلف سعتها وعمقها وظلالها عن مجيئها في ظلمات الليل وأنوار القمر والمصباح، وسبب هذا حمل الكلمتين صورة استعارية واسعة الدلالة والظلال، (وجمعت (الظلمات) لاختلاف الضلالات، ووحد (النور) لأن الإيمان واحد، والإخراج هنا إن كان حقيقة فيكون مختصا بمن كان كافرا ثم آمن، وإن كان مجازا فهو مجاز عن منع الله إياهم من دخولهم في الظلمات قال الحسن: معنى (يخرجهم) يمنعهم، وإن لم يدخلوا، والمعنى أنه لو خلا عن توفيق الله لوقع في الظلمات، فصار توفيقه سببا لدفع تلك الظلمة)[1]فالظلمات تبدأ من الكفر إلى المصائب والفواجع وكل ما فيه نصب وتعب ورهق، والنور يبدأ من الإيمان إلى ما هو سبب لخيري الدنيا والآخرة وسعادتهما. والصورة البيانية بظلالها تعين على إرشاد المتلقين وتربيتهم على الركون إلى الله والتوجه إليه، وتدعوهم إلى الخوف والحذر من الغفلة التي تفقد العبد توفيق الله تعالى المنجي من هذه الظلمات التي لا يدرك لها حدا ولا يحصي لها عددا.

واستهلال أبي تمام رائعته (فتح عمورية) بالصورة الاستعارية في قوله[2]:

السَيفُ أَصدَقُ إنباءً مِنَ الكُتُبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَعِبِ
بيضُ الصَفائِحِ لا سودُ الصَحائِفِ في ... مُتونِهِنَّ جَلاءُ الشَكِّ وَالرِيَبِ
وَالعِلمُ في شُهُبِ الأَرماحِ لامِعَةً ... بَينَ الخَميسَينِ لا في السَبعَةِ الشُهُبِ

(١) البحر المحيط/ أبو حيان التوحيدي/ ٢/ ٢٨٤/ دار الكتب العلمية/ ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م
(٢) ديوان أبي تمام الطائي/ ٧ وما بعدها/ شرح/ محي الدين الخياط/ طبع نظارة المعرف العمومية الجليلة.

والسيف هنا ذو دلالة ناطقة أصدق في قول الحقيقة من كتب السحرة والمشعوذين، وهذه دلالات وظلال أوسع وأعمق من دلالة السيوف المعروفة، فالاستعارة بتشبيه السيف بإنسان وحذف المشبه به، أبرز المعنى وقواه في نفوس المخاطبين، في مواجهة السحرة والعرافين الذين خوفوا الخليفة المعتصم من مواجهته الأعداء، خوفا من الهزيمة التي ادعوا معرفتهم بها، وبمثل هذه الصورة الاستعارية يمكننا إبطال سحر المخربين لعقيدة العامة والنشء والمفسدين في الأرض ممن يدعون الغيب، وقد جاهروا بضلالهم من خلال ظهور وجههم الكالحة في سوائل الإعلام والتواصل الاجتماعي مما ستظهر آثاره السلبية في صفوف الأجيال القادمة، إن لم يواجهوا بما يبطل سحرهم كما فعل أبو تمام بهذه القصيدة التي استهلها بصورة جرى ماؤها في سياق القصيدة.

وللمجاز المرسل تأثير ومبالغة وتنوع يعين على تثبيت معاني الإيمان والقيم في النفوس المتلقية، فقولنا: لقد ساعدني فلان، لا يدنو من المجاز: (له علي أياد سابغة) وقولنا: سقط المطر، يختلف عن قوله: إذا سقط السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد المطر لقربه من السماء، ويجوز أن تريد بالسماء السحاب)[1] فمع جمال التعبير مبالغة تناسب فخره بقوة قومه ومنعتهم.

وبتحليل المجاز في قوله تعالى: (وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا) غافر/ ١٣، وفي قوله: (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ) نوح/ ٧، نجد تأثير علاقة السببية في الآية الأولى تربط الإنسان بخالقه الذي جعل المطر يسبب الرزق لعباده، والرزق يكون فيما يتدخل الماء في تكوينه وما أكثره من مخرجات الأرض أو من صناعة الإنسان، والمجاز جعله في قلب السامع وتصوره في جهة السماء، ليوجه المتلقي تجاه ربه الرزاق.

بينما في علاقة الكلية في الآية الثانية تصوير لهذه النفوس المبالغة في رفض الخير وتجنب مصدر السعادة الأبدية، فجعلهم المجاز كمن يدخل أصابعهم

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه/ ١/ ٢٦٦

كلها في آذانهم، ليحرك مشاعر المتلقي وحسه الجمالي الإيماني لكي يتجنب هذه الحال المشينة السيئة العاقبة.

وليست علاقته التأثيرية مرتبطة بالمشاعر الوجدانية فحسب، وإنما نجده مع التأثير القلبي يترك مجالا للتفكير وكد الذهن في تحليل العبارة وفهمها، وبذلك تشارك جميع الجوارح الفاعلة في الوصول للمقصود، وتتفاعل معه، مما يرسخ المعاني التربوية في نفوس المتلقين.

وقد اصطفى البيان القرآني الكريم الكناية في المواضع التي يمكن أن ينبو عنها ذوق المتلقي، فكنى في مواضع عدة عن الجماع بالملامسة، والنكاح، والمباشرة إلى غير ذلك، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) فكني ب (لامستم) عن الجماع، بما يربي ذوق الأمة الخيرة على الترفع عما يستهجن ويخدش الحياء.

يستنتج مما سبق:

أن للصورة البيانية قيما تربوية عالية، وأنها أحد الأساليب ذات الأثر التربوي القادر على تغيير قناعات المتلقين، والمقرر للمعاني في النفوس، والمبين لدلائل الهدى ومعالم الحق والرشاد إلى الفهوم، والمحبب الأخلاق الحسنة إلى القلوب، كما أنه يملك وسائل تنفير النفوس من الخبائث وتبين طرق الضلال وأسباب الانحراف بطرق عديدة، مع رعاية طبقات المتلقين عقولا.

وكلما تنبه المربي إلى قوة تأثير هذه الصور في النفوس وتنوعها وفق ما يتطلبه المقام وخرجت من نفسه القاصدة إلى بث روح التفاعل الخير والإيجابية الراقية، فمن عوامل نجاح المتكلم أن يكون مخلصا وصوره حسنة نافعة، فحينئذ يكون علم البيان من أرقى الأساليب التربوية ذات التأثير الكبير في التوجيه والتغير، يقول أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن سليمان الكاتب: (التام من

الكلام، ما اجتمعت فيه فضائل هذه الأقسام ، فكان بليغاً صحيحاً، وجزلاً فصيحاً، وكان جيداً صوابا، وحسناً حقاً، ونافعاً صدقا)[١] فليست البلاغة التربوية تعتمد على الصحة والجزالة فحسب وإنما يجب أن يكون الكلام جيدا صوابا حسنا حقا.

ولا تؤتي الصور البيانية قيمها التربوية ومعالجة النفوس من مصائد الشياطين ومكائدهم إلا إذا –إضافة لما سبق– غلفت بالوضوح وسهولة الوقوف على المراد منها بعيدا عن التعقيد والرمزية المتشعبة التي لا تصل إليها الفهوم وهنا فقط يتحقق شرط الإمتاع الأدبي الراقي الذي تهش له النفوس وتميل إليه القلوب وتخضع له العقول، وقد مدح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شعر زهير بن أبي سلمى لأنه كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما هو فيه.[٢] وإذا تحقق في الصور البيانية شرط لياقتها بما استعيرت له–كما يقول الآمدي– وغير منافرة لمضاف، اكتسى الكلام بهاء ورونقا[٣]، فيجتمع الوضوح مع المتعة المرضية للمتلقين، وبذلك تؤتي التربية البلاغية ثمارها.

الملامح التربوية في الفنون البديعية:

لعلم البديع دور ملحوظ في المجال التربوي، وتحقيق الجمال السلوكي في متلقي هذا العلم، وذلك مشروط ببيان هذا الجمال التربوي، وامتلاك المتكلم مهارة الإقناع والقدرة على التأثير في نفوس المتلقين، وكما سيأتي فالبديع ينسجم معناه اللغوي والاصطلاحي حول معاني التجديد والتحديث والابتكار، والحاجة إلى هذه المعاني في الوسائل التربوية ومناهجها لا تخفى.

فمن جانب يعد علم البديع وسيلة للتوضيح والتبيين والتأكيد عن طريق التضاد والتقابل وعن طريق التورية بإعمال الفكر وكد الذهن للبحث عن المعنى المقصود، ومن جانب آخر يعد وسيلة لبث الأريحية النفسية والانفتاح الجواني

---

(١) البرهان في وجوه البيان/ ٢٤٦/ ت حفني شرف، القاهرة.

(٢) طبقات فحول الشعراء/ محمد بن سلام/ ١/ ٦٣/ شرح–محمود شاكر/ دار المدني بجدة.

(٣) ينظر/ الموازنة بين أبي تمام والبحتري/ ٣٩١/ ت محمود توفيق/ القاهرة ١٩٤٤م

لقبول ما يتلقى، وذلك عن طريق التطريب والتنغيم بما يملكه هذا العلم من التشكيل الصوتي بتوظيف الجناس والسجع وغيرهما في العمل على انشراح النفس وسرورها بما يتسرب إليها من معاني التربية والتوجيه، مما يحقق المستهدف من التغيير وتثبيت الجماليات السلوكية في المجتمعات المخاطبة بمعالي الأمور وجلالها.

وعرض الكلام في صورة جلية مؤكدة من جانب وفي معرض حسن يتملك نفس السامع تحقيق لمقتضى البلاغة ومتطلباتها، يقول أبو هلال العسكري: (البلاغة كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن)[١]، واستمد الخطيب من المعرض الحسن تعريفه لعلم البديع، فيقول: (علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة، وهذه الوجوه ضربان: ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع إلى اللفظ)[٢] وتعد هذه المزية المزدوجة من أهم الوسائل التربوية ذات القدرة على التأثير وتبديل السلوكيات الخاطئة وتغييرها من خلال ما يختار من البيانين الكريمين: القرآن العظيم والحديث الشريف، والنماذج البيانية الإنسانية المتسقة مع المراد.

ومن ثم فإني أرى أن تأثير الفنون البديعية ببعديها المذكورين حاضر في كل بيان وفي كل غرض، وأن أثرهما يشمل الجوانب السلوكية والمشاعر والأحاسيس التي تعتمل بها النفس البشرية.

وجمال هذا اللون البلاغي يكمن في مجيئه طواعية لا غصبا، وفطرة لا تكلفا، وذلك مشروط بأن يكون السياق يطلبه، والمعنى يستدعيه، فحينئذ يؤتي ثمرته، ويحقق هدفه، وتزدهر اللفتات التربوية في النفوس وتزهر في السلوك والأخلاق والاعمال.

---

(١) الصناعتين/ ٨/ ت/ محمد علي البيجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم/ المكتبة العصرية – بيروت – لبنان ١٩٨٦م

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة/ ٣٨٣/ عبد القادر حسين/ ط١/ مكتبة الآداب – القاهرة ١٩٩٦م، وينظر/ مفتاح العلوم/ السكاكي/ ٤٢٣/ ت/ نعيم زرزور/ دار الكتب العلمية– بيروت لبنان

أما إذا لم يقع موقعه، بأن جاء عصيا متكلفا مبالغا فيه، وعبئا على السياق ثقيلا على الكلام، فقد تأثيره، وحرم بريقه، وذهب تحسينه، وأفسد العمل الأدبي[١]، ومن ثم أضاع الأثر الجمالي التربوي الذي يحول بين علم البلاغة وجمهور المتلقين، وليكن البيان القرآني مجالا للتأسي والاقتداء، فهو كتاب دعوة وتربية وتوجيه، وكان للبديع فيه من البلاغة والفرادة ما يغزو به نفوس المتلقين بما يبثه من تأثير تُوقظ به النفوس، وتُشحذ به الهمم، ويتحقق به العزم.

فالتدبر الواعي في سياق قوله تعالى: (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ*وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) الواقعة/ ٨-٩ يجعلنا نوقن بأنه لا غنى عن الطباق بين (الميمنة والمشأمة) فبه يتقرر في النفس صورة الفريقين، وبعد ما بينهما، مما يزيد أسلوب الاستفهام حياة وألقا ونبضا، فتعانقت آثار الطباق في نفس المتلقي مع دلالة الاستفهام على التعجيب لحال أصحاب الميمنة والتعظيم لشأنهم في التنعيم، والتعجيب لحال أصحاب المشأمة في الشقاء[٢] والتحقير من شأنهم، وبذلك التعانق المثير بين أسلوب الاستفهام والطباق تتجلى في نفوس المتلقين القيمة التربوية من وراء نهاية رحلة كل فريق، وسعة بعد ما بين الخاتمتين.

وظيفة الطباق تجلية الصور والمعاني المتناقضة أو المتعاكسة وتوضيح الفروق بينا، فبالأضداد تتميز الأشياء، ويستند أحد المتضادين على الآخر في تصوره واستحضاره في ذهن المتلقي[٣] وبهذه الخاصية جمع الطباق الفريقين في صورة معاكسة، تتضح من خلالها عاقبة كل فريق، فهؤلاء في الجنة ينعمون، وهؤلاء في النار يعذبون، ومن ثم تستبين السبيل بهذا الأسلوب وتتحقق التربية

---

(١) ينظر/ دراسات في علم البديع/ عبد الواحد حسن الشيخ/ ٨،٩/ مكتبة الإشعاع للطباعة والنشر والتوزيع – مصر.

(٢) ينظر/ صفوة التفاسير/ محمد علي الصابوني/ ٣٠٦/ دار القرآن الكريم/ ط٤/ بيروت ١٩٨١م

(٣) ينظر/ البلسم الشافي في علوم البلاغة/ فواز فتح الله الراميني/ ٣٠٥/ دار الكتاب الجامعي ط١/ الإمارات ٢٠٠٩م، وفنون بلاغية/ زين كامل الخواسكي، وأحمد محمود المصري/ ٢٠٤/ دار الوفاء ط١/ الإسكندرية ٢٠٠٦م

الإيمانية المعينة على الخير والمحببة للنفوس في سلوك الطريق المستقيم، والمحذرة من الغفلة والانحراف عن الجادة والانجرار إلى ضلال أصحاب الشمال.

ويجتمع أسلوب التوكيد مع المقابلة والسجع المرصع الذي اتفقت فيه كلمات الفقرتين في الوزن–في قوله تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) الانفطار: ١٣، ١٤، وبانسجام التأكيد المقرر لتلك النهاية الخالدة لكل فريق في نفوس المتلقين مع توضيح المقابلة لصورة الفريقين وإظهار تضاد كل صورة للأخرى مع الظلال التنغيمية للسجع التي توقظ المتلقين وتنبههم إلى خاتمة الأبرار المنعمة، ونهاية الفجار الجحيمية المرعبة.

فالسجع بهذا التطريب وسيلة تربوية ناعمة تتفتح لها مغاليق القلوب بلين، وتتسرب إليها المعاني التربوية الداعية إلى التغيير بالتنبيه وإيقاظ المشاعر الإنسانية التي تحب النهايات السعيدة، والخواتيم الحسنة، مما يزيد التوكيد والتوضيح تمكينا من النفوس وقوة تأثيرية هائلة.

والجناس بين (تبَّت/ تبَّ) في سورة المسد (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) المسد/١، أظهر القوة التأثيرية لهذا الفن، (والمراد بالثاني الإخبار بهلاكه نفسه، وذكر بكنيته لاشتهاره بها، وقد أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له، ...أو لتجانس ذات لهب ويوافقه لفظا ومعنى)[١]

واستهلال السورة به يجعله مسيطرا على المعنى ومؤثرا فيه بأثره التنغيمي وإثارة تفكير المتلقين الذين يشحذون الهمة لمعرفة معنى الكلمتين اللتين تبدوان للوهلة الأولى بمعنى واحد، ثم يدرك اختلاف دلالة الكلمتين، ف(تبت) الأولى دعاء عليه، والثانية (تب) إخبار بمصيره المحتوم، وهو الخلود في النار[٢]. يقول أبو السعود: (وإيثار التباب على الهلاك وإسناده إلى يديه؛ لما روي: لما نزل وأنذر عشيرتك الأقربين رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا وجمع أقاربه

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسني الآلوسي/ ١٥/ ٤٩٨/ ت/ علي عبد الباري عطية/ دار الكتب العلمية–بيروت/ ١٤١٥هـ–

(٢) ينظر/ التفسير الكبير/ الإمام فخر الرازي/ ١١/ ٣٥٠/ دار إحياء التراث العربي–بيروت

فأنذرهم، فقال أبو لهب: تبا لك ألهذا دعوتنا، وأخذ حجرا ليرميه عليه السلام به وتب أي: وهلك كله، وقيل: المراد بالأول هلاك جملته كقوله تعالى: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ومعنى وتب: وكان ذلك وحصل)(١)

للجناس تأثير عميق، حيث يظهر التهديد والوعيد المستهل به توجه السياق إلى (تقريع شديد، له وقعه في نفس هذا الكافر العتيد، وقد أسهمت المجانسة بين الوعيدين في الكشف عن المعنى الرئيس التي تدور حولها السورة، وهو بيان مصير من حارب الله ورسوله من الطغاة أصحاب المناصب والأموال)(٢)

الجناس بسياقه أظهر عاقبة من يتطاول على رسول الله–صلى الله عليه وسلم_ ولو كان المتطاول عمه، وأن الله تعالى هو الذي يتولى الدفاع عن رسوله الكريم، وبذلك يرتدع كل حاقد أو حاسد على نبي الإسلام، ويفرح كل مسلم بعلو شأن نبيه وحفظ الله تعالى له، ويزداد إيمانه، ويسهل التمسك بسنته والاقتداء به.

وعلى الأديب المنتج للإبداع، والبلاغي المبين عن جماليات الإبداع السالكَين طريق التربية والتوجيه أن يستمد من الفنون البديعية طاقات تأثيرية قادرة على تغيير ما يعلق بالنفوس المتلقية من سوء، وبث روح جديدة مملوءة خيرا وقيما، وعليهما في سبيل ذلك أن يتبع منهجية البيان القرآني في البعد عن تكلف الفنون البديعية وتصنعها الذي يبعد المتلقين عما قصداه من بث جماليات القيم والمبادئ السامية في نفوس متلقي إبداعهم، وتنفيرهم من غيره.

ولابن زيدون شاهد في دقة استجلاب المعاني وتوضيحها وتقريرها في نفوس المتلقين كما تعتلج في نفسه، فتحس بنبض قلبه، وجراح روحه، وآلام ثائرة هائجة بعدد أنفاسه، وفيه تتعانق البديعيات لتلعب دورا مؤثرا في تلاحم أجزاء الكلام وترابط فقراته. إذ يقول:(٣)

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ ٩/ ٢١٠/ مطبعة عبد الرحمن محمد – القاهرة

(٢) البديع وأثره النفسي في تفسير الآلوسي (جزء عم نموذجا) م.د/ مؤيد يحيى قاسم/ ١٦٥/ مجلة مداد الآداب/ وزارة الزراعة/ كلية بغداد–الأعظمية

(٣) ديوان ابن زيدون ورسائله/ ١٤١ وما بعدها/تحقيق على عبد العظيم/ نهضة مصر للطباعة والنشر

أَضحى التَنائي بَديلاً مِن تَدانينـــا وَنابَ عَن طيبِ لُقيانا تَجافينا
أَلّا وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ صَبَّحَنـــا حَينٌ فَقامَ بِنا لِلحَينِ ناعينـــا
مَن مُبلِغُ المُلبِسينا بِانتِزاحِهِـــمُ حُزناً مَعَ الدَهرِ لا يَبلى وَيُبلينا
أَنَّ الزَمانَ الَّذي مازالَ يُضحِكُـــنا أُنساً بِقُربِهِمُ قَد عادَ يُبكينـــا
غيظَ العِدا مِن تَساقينا الهَوى فَدَعَوا بِأَن نَغَصَّ فَقالَ الدَهرُ آمينـــا
فَانحَلَّ ما كانَ مَعقوداً بِأَنفُســـنا وَانبَتَّ ما كانَ مَوصولاً بِأَيدينـــا
وَقَد نَكونُ وَما يُخشى تَفَـــرُّقُنا فَاليَومَ نَحنُ وَما يُرجى تَلاقينـــا

وهذا الاعتماد على منهج التضاد التعبيري يهدف إلى تبيين انتقال علاقته بمحبوبته من التصافي والوصال إلى التخاصم والجفاء،

ولم يكتف الشاعر بهذا المنهج الكاشف عن مأساته وإنما بثه في قطعة موسيقية تبث هذه الآهات في صورة حزينة مؤثرة، متخذا في سبيل تحقيق ذلك من الجناس والسجع مطية طيعة غير متكلفة، ترى الجناس بين (حان) و(حين) وبين (بين) و(حين)، و(صبح) و(صبّح)، وبين (يبلي) و(يبلينا). وتبصر السجع في التصريع بين (تدانينا وتجافينا) والمماثلة في قوله: فانحل ما كان معقودا بأنفسنا ** وانبتَّ ما كان موصولا بأيدينا.

ولو لم يأت بهذه البديعيات غير متكلفة لما رأيناه يبكي بلا صوت دون إحساسنا بالضيق والحزن، ويتأوه دون الشعور بالكآبة، إنه شوق لدفء العلاقة الفائتة، ورسم لأجواء عهد مضى.

ويمكن للبلاغة التربوية الإفادة الكبيرة من هذه الطاقة البديعية الكاشفة عما أراده الشاعر في توعية شباب الأمة وفتياتها بتجنب ما يهدم العلاقات الأسرية ومنغصاتها، وتزكية نفوسهم بتبيين ما للأسرة من مكانة رئيسة في بناء أبناء الأمة الخيرة الناهضة الراغبة في سيادة الدنيا بأنوار الحق والخير والعدل، والتي أصبح هدمها في بلاد المسلمين الشغل الشاغل لشياطين الإنس والجن شرقا وغربا، ليسهل نشر الفاحشة والشذوذ بين فلذات أكباد أمتنا.

وللألوان البديعية الأخرى طرق تربوية عالية، فللتورية -مثلا- أثر كبير في الدعوة إلى التدبر والتفكير وإعمال العقل وكد الذهن، وتطوير هذه المهارة التي من شأنها الارتقاء بفهم الحياة وإدراك كيفية حدوث الأمور وتصورها، وهذا منطلق لتحقيق دعوات البيان القرآني الكريم المتكررة إلى التفكير والنظر المتأمل والاعتبار بما في السموات والأرض وما بينهما، فبهذه المهارة تنفذ مشاريعنا على اختلاف مشاربها، وتحقق أهدافنا أيًّا كانت قيمتها وحدودها، وبخاصة في مجالي الإبداع والنقد، وذلك لأن التورية تستدعي العقل للبحث في بواطن الكلمات للوصول إلى المعنى المقصود الحقيقي.

ولعلنا نسترشد بها في قوله عز وعلا: (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ) المدثر/ ٣١، ففي قوله: (مرض) معنيان: قريب: وهو المرض الحسي الذي يصاب به القلب، وهذا المعنى غير مقصود، وبعيد: وهو الشك والنفاق الذي يصيب قلوب الكافرين، وهذا المعنى هو المراد، والكشف عن المعنى المقصود يتطلب عقلا واعيا، وذهنا متفاعلا، للوصول إلى ما وراء الكلمات، فإذا وصل إليه تبين وتأكد في النفس، وثبت فيها ثبوتا لا يمكن أن يزول، لأنها هي التي توصلت إليه، وأعملت عقلها حتى استبان لها أن المقصود ليس المرض العضوي، ولكنه الأمراض النفسية التي تغرر بأصحابها وتوردهم موارد الهلكة، وتجعلهم مماثلين للكافرين في الاستخفاف بالحقائق وعدم الانصياع لها في وقت يقر فيه الجميع بها ويؤمن بوجودها.

ويعد هذا اللون البديعي طريقا تربويا فذا في دعوة القراء إلى تحفيز عقولهم وتنمية مهارة تفكيرهم للتقدم والرقي والإفادة من طاقات الحياة بمختلف ميادينها فيما يكون سببا للعزة والمنعة والكرامة، والارتقاء بوعيهم، ليكونوا

منتبهين إلى صوابية طريقهم، ومكائد شياطين الإنس والجن الذين لا يألون جهدا في توجيه الأمة إلى الوجهة الخطأ، فأصبح الأخ عدوا والعدو صديقا.

واستثمار التناول البلاغي النقدي أو التحليلي للمبالغة والغلو في التوجيه التربوي كثير الفوائد، ومن ثم تنازع فيهما النقاد، ما بين الوجهة الأخلاقية، أو الوجهة الجمالية(١)، ولا يمنع النقد أو التحليل التربوي أن يتناسق الجمال الفني مع الحس الأخلاقي، بل إن تحليل النصوص التي خرجت من المبالغة المقبولة إلى الغلو المقيت مجالا تربويا خصبا لحماية طلاب العلم والمجتمع من التطرف الفكري، والغلو الكاذب الخارج عن العقيدة أو الحس الجمالي الإيماني، كما أن البلاغي في تحليله يجد الفرصة سانحة لتشيين الكذب والتنفير منه والدعوة إلى الصدق.

إن الناقد البلاغي في تحليله لصور المبالغة والغلو ليس بمنأى عن سبر أغوار النفس الشاعرة، والتوضيح لمضامينها الفكرية وخواطرها القلبية، ومن ثم لا يجافي المنهاج البلاغي الأصيل في توجيه القيم وتثبيتها وتبيين المعاكس لها مما يغلو فيه الأديب شاعرا كان أو ناثرا، كالغلو في قول أبي نواس(٢):

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

لقد بالغ في تصويره للامعقول وخروجه عن العادة، وليس هذا من سمت الأدباء الجادين، وقد دفعه للوقوع في هذا الغلو مدحه البغيض إرضاء للرشيد. والصواب ألا يتجاوز المبدع في حديثه عن مقتضيات خطاب المسئول بأدب مع قول الحق والصدق، حتى لا تزداد المجتمعات ضياعا وخرابا.

---

(١) ينظر/ المبالغة والغلو عند شعراء المعلقات العشر – دراسة بلاغية/ رسالة ماجستير للباحثة/ حمدية عباس جاسم الخفاجي/ كلية التربية للبنات – جامعة بغداد/ ١٤٢٦ه – ٢٠٠٥م، وفحولة الشعراء/ لأبي سعيد الأصمعي/ ٥١/ ت/ د/ محمد عبد المنعم الخفاجي، وطه محمد الزيني/ ط١/ المطبعة المنيرية في الأزهر ١٩٥٣م، ونقد الشعر/ قدامة بن جعفر/ ١٤١/ ت/ كمال مصطفي/ ط١/ مكتبة الخانجي ١٩٦٣م

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب/ ابن حجة الحموي/ ٢٨٣/

من شأن الناقد البلاغي الثبت التقي المربي بوسائل البلاغة التربوية ذات التأثير الكبير أن يساهم في تغيير القناعات وتوجيه القلوب إلى الحق والفضيلة وإرشاد العقول إلى ولوج مساحات المعقولات والوجدانيات والخيالات بعيدا عما يسيء لأدبه وعما يغزو عقول الأمة بما يخربها، وقلوبها بما يفسدها.

ومثل هذا وغيره هو دور البلاغة ومهمة البلاغي في تربية المتلقين والارتقاء بملكاتهم الذوقية والمهارية، وأما الاكتفاء ببيان أثر البديع في المعنى، دون اللفت لما يرتقي بنفوس المخاطبين، ويعلي همة المتلقين، فأراه تقصيرا في حق أمتنا، وتهميشا لمكانة بلاغتنا، وتقزيما لدورها الرائد في التربية والتوجيه، ومن ثم تنفير طلاب العلم والجماهير من دراستها والتعلق بها. وليس هذا خاصا بعلم البديع وحده، وإنما هو كائن في كل أبواب علوم البلاغة ومباحثها.

المبحث الثاني:

الملامح التربوية في التراث البلاغي للإمام عبد القاهر الجرجاني

الإمام عبد القاهر الجرجاني هو الذي أسس علمي المعاني والبيان، وهو الذي قدم للأمة نظرية النظم التي كانت وما زالت رائدة في بابها، ولم يكن معروفا بسعة العلم وتمكنه من فقه الشافعية ومنهج الأشاعرة وعلم النحو فحسب، وإنما عرف بزهده وتقواه، يقول الإمام الذهبي: (كان شافعيا، عالما، أشعريا، ذا نسك ودين. قال السلفي: كان ورعا قانعا، دخل عليه لص، فأخذ ما وجد، وهو ينظر، وهو في الصلاة فما قطعها)[1] وكونه ذا نسك ودين وورع وقنوع يقرر أنه رزق تقوى الله وخشيته، وهي صفات تؤسس لما سنبين عنه من ملامح التربية في منهجه البلاغي.

والباحث في كتابيه (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز) يجد الإمام قد نحى مناحي تربوية عديدة، وتبدو ملامح منهجه التربوية في منحيين: في خطابه لطلاب العلم، وفي تحليله لشواهده المختارة، وسمات هذين المنحيين ما يلي:

- تقدير العلماء، والبدء من حيث انتهوا:

يعد هذا الجانب في شخصية الإمام ظاهرا جليا لكل قارئيه، ويكشف عن أسلوب تربوي أعمق تأثيرا في النفوس، وهو أسلوب التربية بالقدوة، فالإمام لم يضرب عن العلماء السابقين صفحا، بل ذكر العديد منهم، وأثنى عليهم، ودعا قارئيه إلى الاقتداء بهم، والإفادة من علومهم الظاهرة والدفينة، وهذا ما أجده فيما يلي:

١- عدم تنكره لأهل العلم: فالثابت أنه لم يعرف عن الإمام (تنكره لمن قبله من العلماء، بل على العكس من ذلك، أخذ عن الكثيرين، وذكرهم، سواء كانوا نحويين أم أدباء، أفاد من سيبويه، والجاحظ، والآمدي، والجرجانيين، صاحب

(١) سير أعلام النبلاء/ ١٨/ ٤٣٣/ ت/ شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي/ مؤسسة الرسالة/ ط١/ ١٤٠٥-١٩٨٤م

الوساطة، وابن أخته أبي أحمد، وغيرهم)[1] وهذا الملمح التربوي أضحى بارزا في صورة ضوابط بحثية تسعى المؤسسات العلمية في العصر الحديث إلى دعوة جمهور الباحثين لتحقيقه، لكونه أمانة علمية، ولتحقيق الجدية في الدراسات المعاصرة.

٢- تقدير العلماء وإطالة النظر في علومهم: كان الإمام الجرجاني يضرب المثل في تقدير العلماء السابقين، ومطالعة علومهم، واستدامة النظر في خواطرهم القلبية وتصوراتهم العقلية، فكان خير قدوة في تقدير العلماء وتدبر صناعتهم المعرفية، والمحاولات الجادة في استكشاف ما خبئوه بين كلماتهم للأجيال اللاحقة، نجد ذلك في قوله: (ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة، والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء. وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج. وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبنى عليه)[2]

تبرز شخصية الإمام من وراء تدفق كلماته كخادم للعلم، وناظر نظر المحلل الكاشف، ومدقق بعمق في كلام العلماء المؤسسين للمعرفة وثقافة الأمة، والمستكشف لما تركوه للأجيال العاقبة لتنال حظها من المجد والعلو حينما تستخرج خبيائاتهم وركازهم العلمي الجليل القدر العظيم النفع.

٣- تجنب الإساءة لمن خالفوه: هذا الخلق الرفيع من آثار صدقه وتقواه، حيث لم أجد له مقالة تسيْ إلى عالم تناول مسألة وخالف فيها ما يراه الإمام، كما فعل في تناوله لأبيات لها وقفات مع أهل العلم، وهي قول الشاعر:

ولَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجةٍ ... ومَسَّحَ بِالأَرْكانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وشُدَّت على حُدْبِ المَهَارِى رحَالُنَا ... ولم يَنْظُرُ الغَادِي الذي هُوَ رَائحُ

(١) البلاغة المفترى عليها/ د/ فضل حسن عباس/ ٢٠٤/ ط٢/ دار الفرقان- ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م
(٢) دلائل الإعجاز/ ٣٤

أَخَذْنَا بِأَطْرافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

فما زاد إلا أن قال: (فانظر إلى الأشعار التي أثنوا عليها من جهة الألفاظ، ووصفوها بالسلامة ونسبوها إلى الدماثة، ... ثما انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفا، إلا إلى استعارة وقعت موقعها...)[١]، في حين نجد ابن جني يذم من رأى أن المزية فيها ترجع إلى الألفاظ، فيقول: (هذا الموضع قد سبق إلى التعلق به من لم ينعم النظر فيه، ولا رأى ما أراه القوم منه، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر، وخفاء غرض الناطق)[٢]

في قول ابن جني قسوة وشدة على مخالفه، بينما نجد الإمام مشغولا بتحقيق رؤيته، ومتجاوزا عما يخالفه الرأي، وهذا درس تربوي جليل لكل طلاب العلم بخاصة، وجميع أبناء الجيل بعامة، فقد بدت مظاهر سوء أدب مع أئمة العلم والقدوات، إما من طلاب العلم الصغار الذين يناطحون زورا وبهتانا أكابر بناة عقول الأمة وعلومها وثقافتها، وإما من العلمانيين والشيوعيين الجدد الذين يتطاولون على علماء الأمة في كل وسائل الإعلام المرئية والمقروءة، وفي هذا من الخطر على النشء ما فيه.

- **دعوة قارئيه إلى إجلال أهل العلم وتقديرهم**:

وهي سمة الصالحين، ودعوة المتقين، الذين يجمعون الأمة بعامة وطلاب العلم بخاصة حول أهل العلم، ويبرزون أهمية الالتفات إلى تراثهم الذي يجمع عز الأمة وكبرياءها، وشرفها وخيريتها، وما شحت البركة ونضبت الحضارة وجفت الثقافة وانهزمت العقول أمام الثقافات الوافدة إلا بالانصراف عن ميادين العلم وتشويه صورة أهله الجادين، وتصنيع قدوات عابثة بعقول الشباب، وإغداق الأموال عليهم، وتسليط الأضواء على عبثية حياتهم، للتشويه ولفت الانتباه عن الجادة.

---

(١) أسرار البلاغة/ ٢١، ٢٢

(٢) الخصائص/ ١٠٤/ عالم الكتب.

وقد كان الإمام عبد القاهر ممن شغلوا بتوجيه قارئيه إلى تقدير أهل العلم، وتأمل كلامهم وتدبر المخبوء بين سطورهم، فيقول في معرض حديثه عن كلام العلماء عن الفصاحة وأن أكثره رمزا وإيماء: (أنك لا ترى نوعا من أنواع العلوم إلا وإذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس، وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة، والتلويح أكثر من التصريح، والأمر في " علم الفصاحة " بالضد من هذا: فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه، وجدت جله أو كله رمزا ووحيا، وكناية وتعريضا، وإيماء إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر)[١] وأنت الواجد في مستهل كلامه تقدير العلماء الأولين الذين علموا الناس وأسسوا المعارف وصنعوا الحضارة، وآخره دعوة لتدبر كلامهم وغلغلة الفكر وتدقيق النظر فيما وراء ما أومأوا إليه فوراء ذلك علم مسكوت عنه كما يقول العلامة الدكتور محمد أبو موسى[٢].

وتلفت الدراسة إلى أن العلماء المؤسسين كانوايملكون تصورا للحياة والمعرفة والدين، مما جعل عرى الترابط بين مختلف علوم الأمة قوية ومؤثرة في توجهات العلماء والباحثين، فالعلوم الإسلامية وثيقة الارتباط بعلوم العربية، والتواصل قائم بين دراسة الشعر والتوحيد والنحو والتفسير والعروض والتاريخ. [٣]

كما أن علماء البيان خاصة (لم يكونوا علماء في هذا الباب إلا بعد أن درسوا الشعر دراسة جعلته مع سعته وعمقه وتراحبه كأنه قد أجمع لهم ووضع تحت أبصارهم)[٤] والمقصد من سوق هذه النماذج للجهود المبذولة في سبيل الدراسة المؤسسة للعلوم العربية والإسلامية؛ ليكون ذلك سبيلا إلى تقديرهم والترضي عنهم، والاقتداء بهم، لتظل الأمة موصولة الحاضر بالماضي وهي تؤسس لمستقبلها.

---

(١) دلائل الإعجاز/ ٤٥٥

(٢) ينظر المسكوت عنه في التراث البلاغي/ ١٢/ ط١/ مكتبة وهبة القاهرة/ ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م

(٣) ينظر/ دلالات التراكيب/ ٢٨

(٤) خصائص التراكيب-دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني/ ٥/ مكتبة وهبة-ط٤ ١٤١٦هـ-١٩٩٦م

وتقدير هؤلاء الأكابر يعين على الاهتمام بعلومهم التي تمثل ثقافة الأمة وعصارة عقولها، فهي الرباط الجامع للأمة، والمعين على تماسكها، وللأزهر الشريف بجامعه العامر دور في الحفاظ على هذا التراث وإجلال علمائه، فكانت أروقته (بشيوخها وطلابها من أهم العوامل التي حافظت على وحدة الثقافة العربية الإسلامية. فلما خلت من الدروس والطلاب واتجهنا في العلم والثقافة إلى غير قبلتنا حدث هذا التصدع والتشقق في هذه الوحدة الثقافية التي كانت من أهم عوامل إمساك شعوبنا بعضها ببعض. وقد ذكر الكثير منا أن الصدع الثقافي بين مشرقنا ومغربنا قد زاد وقاربنا أن نكون بين ثقافتين واحدة في المغرب وواحدة في المشرق)[١]

فلا يمنع البلاغي شيء من أن يصنع صنيع الإمام عبد القاهر، وأن يكون أسوة لطلابه وقارئيه يرون فيه احتراما لأهل العلم الأوائل وتقدير مجهوداتهم، ودعوته لهم أن يتدارسوا علومهم ويغلغلوا فكرهم فيما وراء كلماتهم من ركاز العلم وخبيئه.

- **إثارة همة قارئيه للبحث عن الجديد**:

والإمام ذو طريقة مثيرة وملهمة في تحريك هواجع النفوس، وإثارة الوجدان، ونفح القارئ قبسا من روحه الواثبة، وهمته العازمة، فتراه يستهل موضوعاته ببداية لافتة ومحفزة لمكامن الجد والنشاط، ومثيرة للملكات العقلية والوجدانية، ولكل موضوع مقدمة مناسبة له سهولة أو صعوبة، وضوحا أو خفاء، ففي مقدمة الحذف يقول: (هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن)[٢] ، وهي مقدمة تربوية مناسبة تماما لموضوع الحذف وأسراره البلاغية،

(١) المسكوت عنه في التراث البلاغي/ ٦، ٧

(٢) دلائل الإعجاز/ ١٤٦

فهي تحفز نفوس قارئيه، وتستثيرهم للبحث عن لطائف الحذف وإفاداته المزيدة، وسحره الأخاذ.

وفي بداية تناوله التعريف بالذي خاصة يقول: (اعلم أن لك في الذي علما كثيرا، وأسرارا جمة، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس، وتثلج الصدر، بما يفضي بك إليك من اليقين، ويؤديه إليك من حسن التبيين)[1]، وحينما يستهل قوله بالفعل (اعلم) فهو ينبه قارئه ويلفت نظره إلى أهمية الموضوع وجليل فوائده، ففي الذي علم كثير، وأسرار وخفايا تتطلب البحث والتنقيب والتفتيش، لكنها في النهاية ستتكشف وتظهر، والروح التربوية هنا حاسمة وجلية، رسمت الطريق للقارئ ووضحته، وفتحت له أبوابا عديدة للأمل في المكسب والربح، فما يخطو خطوات في متابعة جماليات التعريف بالذي حتى يحصل على ما يؤنس نفسه، ويثلج صدره، من النكات اليقينية، والمحاسن الجلية.

ولما كان باب الفصل والوصل من أشد أبواب البلاغة عمقا، وأبعدها في التناول، وأغربها عن الفهوم، جعل من مقدمته برهانا على ذلك ودليلا عليه، قائلا: (اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه الأعراب الخلص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد)[2]، فعطف الجمل وتركه يتطلب لا تفتح باب أسرارها، ولا ترفع ستارة لطائفها، إلا للأعراب الخلص، أو من طبعوا على الفهم البلاغي الذوقي الراقي، وأما من فقد الأمرين فلا يستقيم إدراكه للكشف عن أسرار الفصل والوصل، وتبيين نكاته الخاصة بكل موضع، وهذه المقدمة توجيه تربوي، ودعوة للتدرب على تحليل البيان وتذوقه، والكشف عن وغامضه، توضيح العلاقات أو انقطاعها بين الجمل.

---

(١) دلائل الإعجاز/ ١٩٩

(٢) دلائل الإعجاز/ ٢٢٢

ولم تتوقف هذه الملامح البلاغية في مقدمة الموضوعات، وإنما انسابت في تراثه عند تناوله للموضوعات المنثورة في كتابيه، أو في التقديم للشواهد، كما نراه عند حديثه عن الاستعارة التي تزداد حسنا كلما خفي التشبيه، فيقول: (ومثال ذلك قول ابن المعتز:

أثمرت أغصان راحته لجناة الحسن عنابا

ألا ترى أنك لو حملت نفسك على أن تظهر التشبيه وتفصح به، احتجت إلى أن تقول: " أثمرت أصابع يده التي هي كالأغصان لطالبي الحسن، شبيه العناب من أطرافها المخضوبة". وهذا ما لا تخفى غثاثته. ومن أجل ذلك كان موقع " العناب " في هذا البيت أحسن منه في قوله: وعضت على العناب بالبرد

وذاك لأن إظهار التشبيه فيه لا يقبح هذا القبح المفرط، لأنك لو قلت: "وعضت على أطراف أصابع كالعناب بثغر كالبرد " كان شيئا يتكلم بمثله وإن كان مرذولا. وهذا موضع لا يتبين سره إلا من كان ملتهب الطبع حاد القريحة. وفي الاستعارة علم كثير ولطائف معان ودقائق فروق.)[١]

فلم يترك الإمام الفرصة في تناوله لسبب حسن البلاغة وعمقها إلا ويلهب حماس قارئيه، فيذكر المواضع التي لا تعطي أسرارها بسهولة، وإنما تتطلب جهد العقل وكد زناد الفكر والتهاب الطبع وحدة القريحة، ومما لا ينازع فيه أحد أن القارئ الجاد لا يمر بهذا القول الدقيق إلا وتستثار عقيرة البحث بداخله، وتستفز عزيمته لاستبيان ما يمكنها من الكشف عن الخبيئة في مثل هذا الموضع الدقيق، ثم يعيد إثارته مرة أخرى بما هو أعمق وأشمل بما في الاستعارة من العلم الكثير والأسرار ودقائق الفروق، وهذا ما يثير روح المغامرة البحثية لدى القارئ للوقوف على جانب من هذا العلم وطرف من هذه المعاني اللطيفة والفروق الدقيقة الكامنة في باب الاستعارة.

وفي مقدمة رسالته الشافية يقول: (اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعا من اللفظ هو به أخص وأولى، وضروبا من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى،

---

(١) دلائل الإعجاز/ ٤٥٠، ٤٥١

ومأخذا إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وبالقبول أخلق، وكان السمع له أوعى، والنفس إليه أميل)[1]فالمعاني والعلوم لها لغتها التي تكتسب بطول النظر، والتأمل، وتدبر سبلها التي تسلكها، ومعاشرة طرقها، وطول الملازمة والإخلاص لها تمنح الطالب عقلا ذكيا، وقلبا زاكيا، فيبصر ما لا يبصره الآخرون.

والإمام بهذا يفتح الباب أمام تجديد العلوم بكثرة تدبرها، وتغلغل العقول في دقائقها ولطائفها، والعقل الحي يأبى أن يرى خبيئة إلا واجتهد في الكشف عنها، ولا يهدأ أن يرى مجملا إلا وشحذ طاقته لبيان أوجه تفصيله ومسلكه، وقد بين هذا المعنى الجليل في حديثه عن سبب تأليف (دلائل الإعجاز) فيقول: (ثم إن التوق إلى أن تقر الأمور قرارها، وتوضع الأشياء مواضعها، والنزاع إلى بيان ما يشكل وحل ما ينعقد، والكشف عما يخفى، وتلخيص الصفة حتى يزداد السامع ثقة بالحجة، واستظهارا على الشبهة ، واستبانة للدليل، وتبينا للسبيل، شيء في سوس العقل، وفي طباع النفس إذا كانت نفسا)[2]

وهو قول يستحق التوقف والتدبر، لنتشرب منه تربية ورشدا، حيث جعل (التوق) و(النزاع) و(سوس العقل) و(طباع النفس إذا كانت نفسا) مجتمعة متآزرة لتحقيق أمور علمية لا سبيل لتحقيقها إلا بهذا، كقرار الأمور، ووضع الأشياء موضعها، وبيان ما يشكل، وحل ما ينعقد، والكشف عما خفي، (وتابع النفس الحية وهي تواجه الغوامض في العلم والخفايا ولا يقر لها قرار إلا بإزالة الغموض وأن تبقى في طلب كشف الحقائق، إما أن تكشفها أو تموت فتعذر)[3] فهذا هو باب تدبر العلم القائد إلى التجديد والتطوير للعلوم عامة، وعلوم البلاغة خاصة.

---

(١) دلائل الإعجاز/ ٥٧٥

(٢) السابق/ ٣٤

(٣) عبد القاهر وإعجاز القرآن/ د/ محمد أبو موسى/ ٩٨٤/ مجلة الأزهر-عدد/ جمادى الآخرة/ ١٤٤٠هـ- ٢٠١٩م

ثم يدعو الإمام إلى طول ملازمة العلم والبحث عن دقائق المعاني وتدبرها حتى تتودد إلينا وتتقرب هي منا، (وفكر في حالك وحال المعنى معك، ...فإنك تعلم بعد ما بين حالتيك، وشدة تفاوتهما في تمكن المعنى لديك، وتحببه إليك،...)[١] ولا يكون هذا إلا إذا أحببنا العلم وطالت ملازمتنا له، وطلبنا جديده، حينئذ تتكشف لنا خبيئاته، وتتعرض لنا حقائقه.

ثم يبين عما يثلج قلب طالب العلم والباحث في مسائله بقوله: (واعلم أنك لا تشفي الغُلَّة ولا تنتهي إلى ثَلَج اليقين، حتى تتجاوز حدَّ العلم بالشيء مجملا، إلى العلم به مفصلا، وحتى لا يقنعك إلا النظر في زواياه، والتغلغل في مكامنه، وحتى تكون كمن تتبع الماء حتى عرف منبعه، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه إلى أن يعرف منبته، ومجرى عروق الشجر الذي هو منه)[٢]، فالنظر في تفاصيل المسائل العلمية وزواياها، والتغلغل في مكامنها، وتتبع ماءها، والبحث عن جواهرها هو السبيل لاستلال المسائل من أرحام أمهاتها، واستنبات الأفكار الجديدة من أصولها، فقد تقع عين البصيرة على فكرة شاردة بين السطور، فتتولاها رعاية وتعهدا، حتى تصبح فكرة شريفة تفتح أبوابا جديدة لم تكن تفتح إلا من هذا السبيل.

ومما يجدر ذكره هنا قول الإمام عما وجده عند من سبقه من أهل العلم في معنى الفصاحة والبلاغة، والبيان والبراعة، وتفسير المراد بها (فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء. وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج. وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبنى عليه)[٣]، ومعنى هذا أن العلماء السابقين تركوا للأجيال اللاحقة الكثير من دفين العلوم ما يفتح للجادين أبوابا للتجديد والارتقاء بعلوم الأمة.

---

(١) أسرار البلاغة/ ١١٦

(٢) دلائل الإعجاز/ ٢٦٠

(٣) دلائل الإعجاز/ ٣٤

ودعوات الإمام الكثيرة للتدقيق والتأمل والتدبر والبحث عن مخبوء العلوم تهدف إلى تجديد علوم البلاغة والارتقاء بها من داخلها لا من خارجها، وهي السبيل الذي يجب أن تسلكه الدراسات البلاغية المعاصرة، فالقارئ الذي (يتدبر ويراجع ويغلغل الفكر في كلام العلماء يجد فيه ركازا من العلم هو المسكوت عنه، ... وهذا وغيره كثير له دلالة ظاهرة، وهي أن علم العلماء الذي نقرأه مسكون فيه علم مسكوت عنه لم تقرأه، وربما كان أزكى وأصفى وأنقى من العلم الذي نقرأه)[١] فكأنهم تركوا للأجيال القادمة مفاتيح العلم الذي به يتحررون من سجون الفقر والتخلف وعبودية النفس، فلم يكتفوا بما هم في حاجة إليه، وإنما فتحوا لنا أبواب العزة والكرامة لنلج منها إلى ميادين المعرفة الأصيلة التي بها علت الأمة وارتقت.

وليس في هذا دعوة إلى التقوقع والانكفاء على الذات، وترك معرفة ما يدور عند الأمم الأخرى، وإنما هو توجيه إلى الانضباط الفكري الذي يحفظ للأمة ثقافتها، وللعقول نضوجها، وللعلوم تطورها، بأن يحكم الباحث علومه ويملك زمامها، ثم يطالع ما عند الآخرين بعد أن يكون أسس معرفته بعلوم أمته، فغلق (الأبواب في وجه أي جهد إنساني من غير أمة المسلمين، ... ضد طبائع العقول لأن العقل المشوق للمعرفة لا تقف في وجهه الحواجز)[٢] وليس هذا بجديد على الأمة، فلم يطلع علماؤنا السابقون على ما عند الأمم الأخرى فحسب، وإنما هضموها وغربلوها ونقدوها، و(المهم أن كل ما يقرأه أهل العلم من معارف الأمم وتراث الإنسان أبيضه وأخضره إنما هو غذاء وشحذ وإيقاظ وتنبيه)[٣] . وليس للمطالبة بتنحية البلاغة العربية جانبا واستبدالها بما ليس من وادي العربية وربعها، أو خلطها بما يجعها هجينا لا روح فيها ولا صفاء بدعوى جمود البلاغة العربية وبدعوى المعاصرة[٤]

---

(١) المسكوت عنه في التراث البلاغي/ ١١-١٣

(٢) خصائص التراكيب/ ٢٠

(٣) خصائص التراكيب/ ٢٠

(٤) ينظر/ دلالات التراكيب/ ١٨، وخصائص التراكيب/١٨، ٢٤وما بعدها.

ودعوة الإمام للتجديد توجه جهودنا كذلك إلى تيسير علوم البلاغة لهذا الجيل الناشئ في ظلال الوسائل التقنية والاجتماعية العديدة، والارتقاء بكتابتها بصورة عصرية متسقة مع روح العصر حماية لهذا الجيل، (فمن الخطأ الفادح أن نطالبه نحن بأن يتعلم النحو والبلاغة بلغة العصور الخالية، ... لابد أن نكتب المعرفة لأبنائنا كتابة نغريهم بها ونفتح شهيتهم إليها)[١] وببذل الجهود في هذا الميدان تبرز الملامح البلاغية التربوية المعينة على بناء الإنسان المعاصر فكرا وثقافة وسلوكا إسلاميا برجوعه إلى ورود المعين الصافي، فينهل ثقافته ومناهج لغته وحضارة أمته من مواردها، فيصدر شامخا آمنا كريما.

هذه اللمحة التربوية الجرجانية قيمة تثير الجد والنشاط في نفوس قارئيه، لتطوير علوم البلاغة التي تعد من علوم القرآن ذات الأثر التربوي الكبير- والارتقاء بها من مخبوءات العلوم، فهذا الباب كفيل بأن يفتح أبواب التجديد الأصيل، وتقديم علوم العربية والإسلام في ثوبها المعاصر القشيب.

•الدعوة إلى الصبر والأمانة العلمية:

وفي هذا السياق تظهر جانب دقيقا من شخصيته العلمية التقية الفذة الدافعة إلى الصبر على مشقة طلب العلم والبحث عن شواهده، فيقول: (ثم إنك تحتاج أن تستقري عدة قصائد، بل أن تفلي ديوانا من الشعر، حتى تجمع منه عدة أبيات)[٢]وهو يحكي عن صنيعه في اختيار شواهده وتدقيقه فيها، ويحمل أسلوبه جانبا تربويا لطلاب العلم وقارئيه بقوله: (ثم إنك تحتاج.....) والفرق بائن بين قوله وقولنا: إنني كنت أحتاج...، لما في قوله من كشف عن جانب جليل من شخصيته العلمية الصابرة المثابرة الباذلة، ومن جانب آخر حسن التواصل الثري مع قارئه بتوجيه الخطاب إليهم تربية وتوجيها إلى الصبر والمسئولية.

كما أنه يضرب المثل بصنيعه في صدقه وأمانته في توثيق شواهده، وانتقائها من كتب السابقين كالموازنة والوساطة والبديع، وما استحسنه من

(١) خصائص التراكيب/ ١٩
(٢) دلائل الإعجاز/ ٨٩

دواوين الشعراء المعاصرين، كالبحتري والمتنبي وأبي تمام وغيرهم، وهذا ما نعقد عليه اليد في باب الحذف، فقد اصطفى شواهده الشعرية من السابقين وهي قليلة كشعر طرفة، والطفيل الغنوي، وعمرو بن ربيعة، وعبد الله بن الزبير، وعمرو بن معدي كرب، وجميل، وذي الرمة، ومن المعاصرين له وهي الغالبة كشعر جرير، والمتنبي، والبحتري وقد ذكر له سبعة شواهد، والوليد بن حنيفة، وبكر بن النطاح، والخريمي، وابن شبرمة القاضي، والجوهري، وغيرهم.

هذا العدد من أسماء الشعراء يظهر أن الإمام (كان محيطا بنماذج الشعر العربي وفرائده)[١] ويكشف عن جانب الصدق والتثبت مما يزيد الثقة بينه وبين طلاب العلم، وبمثله تتربى الأجيال من أئمتهم على صفات لا غنى عنها عامة وفي مجال البحث والدراسة خاصة كالصدق والأمانة والتثبت، وهي صفات عالية حظيت بشرف الذكر في البيانين الكريمين قرآنا وسنة.

•التواصلية العلمية وبناء العقول:

من السمات التربوية الغالبة في كتابي الإمام الأسرار والدلائل بث روح التواصل بينه وبين قارئيه، فكثيرا ما تراه يخاطبهم ويدعوهم للفهم والتدبر والتأمل، ويقصد من وراء ذلك أيضا بناء عقول تبني المستقبل بالعلم القائم على التدبر المفضي إلى حب العلم وتقديره، ومن النماذج الواضحة قوله: (فتأمل الآن هذه الأبيات كلها، واستقرها واحدا واحدا، وانظر إلى موقعها في نفسك، وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها، ثم فليت النفس عما تجد، وألطفت النظر فيما تحس به. ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك، وتوقعه في سمعك)[٢] .

وفيه نلحظ كثافة التواصل مع القارئ، نجد ذلك في الكلمات: (تأمل – استقرها – انظر – مررت – فليت – ألطفت – تحس – تكلف – ترد – تخرج – توقع) وبها جعل المتلقي حاضرا، فاعلا، مشاركا، بل إنه أشرك حواسه وملكات

(١) البلاغة تطور وتاريخ/ د/ شوقي ضيف/ ٢١٨/ ط٤ دار المعارف

(٢) دلائل الإعجاز/ ١٥١

تلقيه ووجدانه وأثار فيه النفس والعقل، فأشرك بعضا منها: (نفسك – النفس – النظر – لفظك – سمعك) وهذا ما يجعل قارئيه جزءا من الدرس البلاغي، فلا يشعرون بالملل والنصب ولا تضعف همتهم، مما يجعل الإمام فريدا في هذا اللون التربوي الذي ينشره بين طلاب العلم.

وهذه الحميمية التواصلية بين الأجيال العلمية تحفظ للأمة تراثها وثقافتها وشخصيتها التي تنفرد بها بين الأمم. وهذا لون تربوي لا غنى لنا عنه في ظل الشواغل الكثيرة التي تسلب لب طلاب العلم وقلوبهم، وتشوش عليهم أثناء القراءة منفردين، أو حين قيام الأستاذ بتعليمهم.

ويقول في باب الاستعارة: (ثم راجعْ فكرتَك، واشْحَذْ بصيرتَك، وأحسِنِ التأمُّل، ودع عنك التجوُّز في الرأي، ثم انظر هل تجدُ لاستحسانهم وحَمْدهم وثَنائهم ومَدحهم مُنْصَرَفاً، إلاّ إلى استعارةٍ وقعت موقعها وأصابت غَرَضها، أو حُسن ترتيب تكاملَ معه البيانُ حتى وصلَ المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع، واستقرَّ في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن، وإلا إلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد)[١] ومثل دعواته هذه كثيرة مبثوثة في كتابيه الأسرار والدلائل مما يشعر قارئهما بأبوية العالم المربي، وتوجيه الشيخ المرشد، إنه يجد حبل الود ممدودا، وباب الدعوة إلى التدبر والتأمل والنظر مفتوحا، بل إنه يحس بأنه يساق إليه سوقا رحيما حسنا لطيفا.

وخير من تأثر من علمائنا المعاصرين بهذه التواصلية شيخنا الدكتور/ محمد أبوموسى وبخاصة في كتاباته المتأخرة، كما في مؤلفه (المسكوت عنه في التراث البلاغي) وكذلك في مقالاته في مجلة الأزهر[٢].

---

(١) أسرار البلاغة/ ٢٢

(٢) ينظر مقاله/ الإعجاز في معترك الأقران للسيوطي/ مجلة الأزهر/ ٢٢٦٩/ عدد (ذو القعدة ١٤٤٣هـ–يونيو ٢٠٢٢م

•الدعوة إلى التدرج ومراعاة الفوارق الفردية:

وهما من المبادئ التربوية التي حفي بها التربويون، قديما وحديثا، ويكون التدرج من النشاط الذي يدرك بالحواس إلى النشاط التصوري شبه المحسوس، ثم يصل إلى النشاط الذي يحتاج إلى فكر وتأمل، وقد توصلت العبقرية الفذة للإمام عبد القاهر الجرجاني إلى ذلك بأن جعل الانتقال من المعقول إلى المحسوس قيمة جمالية ذات تأثير كبير في التمثيل، لأن النفس بالمحسوس ألصق، وبمعرفته أوثق فقال: (فأول ذلك وأظهره، أنّ أُنسَ النفوس موقوف على أنْ تخرجها من خفيّ إلى جليّ، وتأتيها بصريح بعد مكنّى، وأن تردها في الشيء الذي تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم= نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعمّا يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأنّ العلم المستفاد من طرق الحواس، أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام)[1] وتجسيد الصورة التمثيلية العقلية في صورة حسية تزيح عن النفس استغرابها، بمشاركة الحواس وتضافرها في الوقوف على جمال الصورة واستيعاب أبعادها.

ولا يخفى أهمية مبدأ التدرج في منهاجنا الإسلامي فقد رأيناه في تحريم الخمر، وفي تربية النبي–صلى الله عليه وسلم– لأصحابه، وما أحوجنا إليه في دروسنا العلمية بحثا وتأليفا وتعليما، حتى لا يتسبب تنحية هذا المبدأ من أعمالنا العلمية والتعليمية في نفور طلاب العلم، وانقطاعهم عن تحصيله، وبذلك يكون الإمام قد فتح لنا بابا تربويا بلاغيا يقرب هذا العلم من طالبيه، ومن عامة جماهير الأمة التي هي بحاجة إلى الرفق بهم ومدهم بما يرتقي بتصوراتهم ومشاعرهم.

وفي مراعاة الفوارق الفردية بين المتلقين تجده يفرق بين نوعين منهما: (فأحدهما المضعوف المغفّل وهو الذي يقف عند ظاهر النص ولا يتآلف معه، ولا يوظف خبراته النفسية والاجتماعية والذوقية في استنطاق النص، فهو يركن إلى النظرة العجلى؛ لأنه قليل الصبر على الجهد والتأمل. أما النوع الثاني من

(١) أسرار البلاغة/ ١٢١/ ت/ محمود شاكر/ مطبعة المدني– القاهرة

المتلقين، فهو اللبيب اليقظ الذي يتفاعل مع النص ويخلع عليه من روحه وخبراته وتجاربه، وهذا النوع من المتلقين هو الذي استحوذ على اهتمام الجرجاني في إدراك مكنونات النص، وفي استخراج الدر الكامن في سبر النص) [١] وبهذا يكون الإمام قد وجه إلى ضرورة أن نتعرف على قدرات طلابنا العقلية، وحسن الإفادة منها، ورعاية الموهوبين بما يعلي من شأن الأمة ويرتقي بها، وكذلك حسن التعامل مع ذوي القدرات المتوسطة ومن دونهم حتى نحفظ لهم كرامتهم وصحتهم النفسية والإفادة القصوى الممكنة من قدراتهم الاستيعابية.

ولا شك أن مراعاة هذه الفوارق يعين على حسن اختيار الموضوعات وشواهدها المتنوعة والمتناسقة مع قدرات الطلاب ومهاراتهم، مما يجعل بين علم البلاغة وطلابه صلة رحيمة ودودة معينة على الفهم والاكتساب.

•الدعوة إلى الاهتمام بالوسائل ذات التأثير النفسي في المخاطب:

يعد الأثر النفسي الذي يحدثه الأدب في نفوس المخاطبين من أهم الوسائل التربوية التي اهتمت بها البلاغة العربية على يد علمائنا السابقين، إلا أنها حظيت بمكانة عالية في تراث الإمام عبد القاهر الجرجاني، والبعد النفسي للبلاغة العربية من أهم مقومات جمالها واستمراريتها وبلوغ مقاصدها.

والباحث في تراث الإمام يجده لفت إلى عدة أمور ذات أبعاد نفسية ووجدانية وصور عقلية مؤثرة، وأن تغلل التصور العقلي في الصورة ما هو إلا وسيلة لجذب النفس وتمكين المعاني اللطيفة منها، وكان أولها التقديم الحسي للصورة البيانية، وذلك لأن الحسيات أقرب إلى النفس وآلف لها من العقليات، والانتقال من المحسوس إلى المعقول يعين المقاصد أن تتسلل إلى النفوس دون عناء أو انتقاص. ومنها اهتمامه بالصور النادرة، وذلك لأن الصورة المألوفة ينطفئ ضوؤها في النفس سريعا ولا تلتفت إليها، ثم سلط الضوء على الصورة

---

(١) القيم التربوية والجمالية في مفهوم التمثيل –عند عبد القاهر الجرجاني/ د/ محمد عبد الله أبو الرب، ود/ عبد العزيز موسى درويش علي، / ٢٠٠/ عدد خاص ٢٠/ مجلة بحوث التربية النوعية– جامعة المنصورة– ٢٠١١م

ذات الغموض، وأن تأثيرها لا يتأتى إلا بعد بذل الجهد العقلي في استجلاء أبعاد الصورة ولملمة ظلالها، فتكون بصمتها في النفوس أبقى، وبقاؤها أدوم، وتأثيرها أقوى، فالنفس جبلت على الارتباط بما تحصل عليه بعد جهد وصبر وعناء.(١)

وكان الإمام لا يتوقف عند الآثار السطحية للشواهد، وإنما يتعمق فيما وراءها من أبعاد نفسية وجمالية ذات تأثير عميق في المخاطبين، وكان له مع التمثيل البياني وقفة تجلت فيها ذائقته الفائقة في كشف هذه التأثيرات النفسية المدهشة –وقد تناولت طرفا منه في الملامح التربوية لعلم البيان– بل قد ارتأى أن النفس تهدأ وتأنس بمرور التصوير والمشاهدة، فيقول: (إنا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفس مع العلم بصدق الخبر)(٢) وذلك لأن الصورة والنقش على الأحجار كانت هي الوسيلة الأولى للإدراك والمعرفة، فالمشاهدات التصويرية تناغي النفس وتردها إلى مناغاتها الإدراكية الأولى، أو كما يقول الدكتور/ محمد أبو موسى للأديب المبدع: (أنت تناغي الروح بهذه اللغة التصويرية كما تناغي الطفل بما يثيره ويشوقه من أصوات وأفعال)(٣)

وهذا الجهد البلاغي الجرجاني والنظر الدقيق في أسباب التأثير في النفس منحنا وسيلة تربوية عظيمة النفع جليلة القدر، فتضافر التصورات العقلية والعواطف الوجدانية وتعاونها كفيل بإحداث تغييرات كبيرة في نفوس الأمة ومن ثم يحدث تغيير أجل في المجتمعات التي تمد يدها إلى من ينتشلها من واقعها المرير.

فالتغيير وإدراك الحقائق والقيم الجمالية النبيلة لا يقر قراره إلا بقدر تسربه في النفوس وتمكنه منها، وكلما كان الناقد أو المحلل البلاغي غواصا باهرا فيما وراء البيانين الكريمين، والبيان الإنساني من مؤثرات نفسية دقيقة كلما تملك

---

(١) البلاغة والأثر النفسي–دراسة في تراث عبد القاهر الجرجاني/ عبد الله عبد الرحمن أحمد بانقيب/ ٢/ رسالة ماجستير–كلية اللغة العربية–جامعة أم القرى

(٢) أسرار البلاغة/ ١٢٦

(٣) التصوير البياني/ ١٣٧/ ط٣/ مكتبة وهبة –القاهرة ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م

ناصية التغيير وبث الإحساس الجمالي الإيماني والإنساني في نفوس قارئيه، وجعل من البلاغة ميدانا مؤثرا في فكر الأمة وثقافتها، ومستميلة للعقول الطلابية والجماهيرية إليها.

•التحليل البلاغي التربوي:

بمجيء الإمام عبد القاهر الجرجاني ارتقت البلاغة العربية ارتقاء لم تبلغه من قبل ولا من بعد، بل إن الهمهمات المتداولة اليوم بصور شتى، وطرائق عدة تتلبس ثوب الجديد –ما هي إلا امتداد من نظرية النظم التي نسج الإمام عبد القاهر خيوطها، وأخاط لها ثوبا قشيبا، وشيد لها قصرا فريدا، وما الدراسات التي يشاد بأنها ترى النص الأدبي بناء لغويا، يجب استهداف بيان جمالياته وإبداعاته بتحليل بنائه اللغوي واستنطاق إيحاءاته وظلاله، وتحرير أسباب قبوله واستحسانه، أو تحبير علل رفضه واستهجانه – إلا من منسول فكر الإمام عبد القاهر في نظرية النظم وما أثاره من قضايا وما أخبر به من فكر أو ما قام به من صنيع في تحليل أو تعليل(١).

وميدان التحليل البلاغي والبحث عن أسرار اختيار الكلمات واصطفاء التراكيب، والكشف عن دقائق الفروق ولطائف المعاني من الجوانب البلاغية الغامضة التي تتطلب ذائقة فائقة، وثقافة واسعة، وهمة عالية، وعزيمة لا تمل، وعقلا تمرس على خوض المغامرات البيانية، والبحث عن قاع المقاصد وقممها، ووجدان قتل خوفه، فلا يتوقف عن الإحساس بمكنون البيان غير هياب للمسير بين السهول أو الجبال.

وهذا الغموض يكتشف بالقراءة الواعية، وبالعين الفاحصة، وبالبصيرة المهدية إلى كشف المستور، ورفع الحجب عن خبيء المعاني ولطائفها، فيقول الإمام عن أحد أساليب التمثيل: (وما كان منه ألطف، كانت امتناعه عليك أكثر،

---

(١) سمات الدرس البلاغي بين الإمامين: عبد القاهر الجرجاني والسكاكي/ للباحث/ ٨٧٤/ المؤتمر العلمي الثالث (قضايا التراث العربي والحضاري–التحديات والآمال) كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

وإباؤه أظهر، واحتجابه أشد)[1] ونبه إلى أن هذا الغموض الذي ترتفع به الهامات المبدعة ليس من باب التعقيد وتعمد التعمية الذي يجعل المتلقي يكد الذهن ويجهد الفكر ويرهق البصر والبصيرة ثم لا يخرج من وراء ذلك بطائل حميد، ولا بنائل مجيد، ثم يسوق الأمثلة على ذلك بمثل قول المتنبي: فإن المسك بعض دم الغزال.[2]

والفرق جلي بين ما يحرك الخواطر ويستنفر الملكات ويلهب الحماس لنيل أسرار البيان ولطائفه ودقائقه، وبين ما يرهق ويتعب ثم يكون النوال خفي حنين، فالأول غموض محمود راجع إلى تجربة شعرية، ودقة بناء تحمل أسرار وكنوز تنال بعد شرف المحاولة الجادة، والثاني تعقيد مذموم عائد إلى غياب عاطفة، وسوء صياغة وتعمد تعمية معان وسيطرة عقلانية قاصدة إلى تعجيز المتلقي وإرهاقه دون طائل، وهذا جانب تربوي جرجاني ذو أثر بالغ في نفوس المبدعين بدعوتهم للألق ودقة الاختيار للكمات وصفائها وللتراكيب ودقائقها، وفي نفوس الباحثين للتفتيش عما وراء ذلك من أسرار وخبيئات وما يتطلبه ذلك من صبر وعزيمة وبذل، وكذلك فيما استحدث من نظريات داعية إلى الغموض الأدبي التي تستثير كوامن العقل وحساسية الوجدان للبحث عما وراء هذا الغموض.

ويجد الباحث بغيته في مستهل كتابه الأسرار حيث يقول في أول سطوره: (اعلم أن الكلام هو الذي يُعطي العلومَ منازلها، ويبيّن مراتبها، ويكشفُ عن صُوَرها، ويجني صنوفَ ثَمَرها، ويدلُّ على سرائرها، ويُبْرِزُ مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان، ونبّه فيه على عِظَم الامتنان، فقال عزّ من قائل: «الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرْآنَ، خَلَقَ الإنْسَانَ، عَلَّمَهُ البَيَانَ» فلولاه لم تكن لتتعدَّى فوائدُ العلمِ عالِمَه، ولا صحَّ من العاقل أن يَفْتُق عن أزاهير العقلِ كمائمه، ولتعطَّلَت قُوَى الخواطر والأفكار من معانيها، واستوَتِ القضيّة في مَوْجُودَها وفانيها، نَعمْ، ولوقع الحيُّ الحسَّاس في مرتبةِ الجماد، ولكان الإدراك كالذي ينافيه

(١) أسرار البلاغة/ ١٣٩.

(٢) السابق/ ١٤٠.

من الأضداد، ولبقيتِ القلوب مُقْفَلَةً تَتَصَوَّنُ على ودائعها، والمعاني مَسْجُونَةً في مواضعها، ...)[١]

إنها لتسبيحة طويلة منسولة من نفس تقية، جعلت نعمة الكلام سببا لدخول القارئين في ساحة عباد الله الحامدين الشاكرين، وانهمر مداده بأسلوبه الفائق الرائق البديع يكشف عن عظمة نعمة (تعليم الإنسان البيان) فأصبح مائزا عن سائر المخلوقات، ثم وضح آثار هذه النعمة العظيمة، وجعل من السجع الرقيق نغما لتبتله، كما في قوله: فلولاه لم تكن لتتعدَّى فوائدُ العلمِ عالِمَه، ولا صحَّ من العاقل أن يَفْتُق عن أزاهير العقلِ كمائمه، ولتعطَّلَت قُوَى الخواطر والأفكار من معانيها، واستوَتِ القضيّة في مَوْجُودَها وفانيها. ثم غيَّر تناسقا مع مقصوده في قوله: ولوقع الحيُّ الحسَّاس في مرتبةِ الجماد، ولكان الإدراك كالذي ينافيه من الأضداد). ثم في قوله: (ولبقيتِ القلوب مُقْفَلَةً تَتَصَوَّنُ على ودائعها، والمعاني مَسْجُونَةً في مواضعها. وفي قوله: ولصارت القرائح عن تصرُّفها معقولةً، والأذْهان عن سلطانها معزولة. ثم قال: ولما عُرف كفرٌ من إيمان، وإساءة من إحسان) وفي قوله: ولما ظهر فرقٌ بين مدح وتزيين، وذمّ وتهجين. وللسجع تأثير رقيق في النفوس، حيث يسرب المعاني من الآذان إليها بلطف وأريحية، فيقر في قرارها تكريم الله للإنسان، وتفضيله بتعليمه البيان، وما يستوجبه ذلك من الخضوع والاستسلام، والثناء بجميع المحامد، والانطلاق في ميادين الشكر قولا وعملا.

لقد جعل من بيانه هذا مدخلا عظيما لربط المتلقي بخالقه، فما جادت قريحته في تأسيس لعلم البيان، ولا تحليل لنص أو مثال إلا وكان مرجعه (علمه البيان) فيظل المتلقي موصولا بالملأ الأعلى، مسبحا وحامدا وشاكرا ومتعلما.

ولقد جعل من مقدمة دلائله بيانا لفضل العلم، وأن قيمة كل إنسان لا تعلو إلا بقدر ما حظي منه بوافر الحظ وأعلاه، ثم بين ما يكون من ميل كل صاحب فن بفنه، وقرر بالأدلة والبراهين علو علم البيان وشرفه من بين العلوم، ومن ثم

(١) أسرار البلاغة/ ٢وما بعدها

يخلص إلى أن (جملة الأمر أنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك إلا من جهة نقصه في علم اللغة، لا يعلم أن ههنا دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر، لطائف مُسْتقاها العَقلُ، وخصائصَ معانٍ ينفردُ بها قومٌ قد هُـدُوا إليهـا، ودُلُّوا عليها، وكُشِف لهم عنها، ...)(١)

وبهذه المقدمة ذات البراهين المقنعة، والأدلة اللافتة، يكون الإمام قد مهـد السبيل لطلب أدلة الإعجاز وبراهينه، في فاتحة لكتابه مثيرة للحماس، ومحركـة لمكامن الرغبات الوجدانية، والتصورات العقلية، والباعثة على الجد وبذل الطاقة في سبيل الوقوف على ما يسطره في دلائله من قضايا الإعجاز وبراهينه، ولك أن تعيد النظر وتغلل الفكر في قوله: (وَيعلوَ المُرتقَى، ويعزَّ المطلبُ، حتـى ينتهـيَ الأمرُ إلى الإعجازِ، وإلى أن يخرج من طوق البشر) فلا يترك مجالا أمام الهمـم العالية والعزائم القادرة إلا أن تشمر عن ساعد الجد للوقوف على هذا العلم الدقيق الذي يعلو به كلام على كلام، ويفضل قول قولا، حتى يصل إلى الإعجـاز الـذي يخرج عن طوق البشر وقدراتهم.

إنها التربية المنتجة نفوسا نابهة وعقولا فذة ملهمة، تبحث عما فيه رقيها وعلوها، بالبحث والتفتيش والتنقيب عما فتح لهم الإمام أبوابـه مـن الأسـرار واللطائف التي بها يخرج الإعجاز عن قدرات البشر وإلهاماتهم، ومن ثـم يأخـذ بعقول ووجدان قارئيه إلى متابعة مسائله البيانية وقضاياه العلميـة التـي تنيـر الطريق إلى هذه الأسرار وخبيئاتها.

ثم يزداد إلهاب الحماسة وبث روح الجد والسعي في البحـث عـن وجـوه الإعجاز وأنها ممكنة الحصول، بما ختم به مقدمته بقوله: (فإذا كنت لا تشك فـي أن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا أن الوصف الذي له كان معجزًا قـائمٌ فيـه أبدًا، وأن الطريق إلى العلم به موجود، والوصول إليه ممكن، فـانظر أيّ رجـل تكون إذا أنت زهدتَ في أن تعرف حجّة الله تعالى، وآثرت فيها الجهل على العلم

(١) دلائل الإعجاز/ ٧

وعدم الاستبانة على وجودها، وكان التقليد فيها أحبّ إليك، والتعويل على علم غيرك آثر لديك)[١] ولا يقبل بذلك عاقل.

ومن ثم يكون الإمام قد ملك ناصية العقول، وأمسك بتلابيب النفوس، وانه لا مناص من كد الذهن وبذل الطاقة في البحث عن أسرار الإعجاز الممكنة، وأن طريق الوصول إليها هو دراسة البيان. وبهذا نكون قد عقدنا اليد على تفنن وسائل التربية الإقناعية عند الإمام عبد القادر، بمهاراته المكينة وبراهينه المنيرة، ولا شك أنها قادرة على تغيير القناعات، التي يتبعها تغير السلوك إيجابا أو سلبا، وفق مقصد المتكلم وغايته.

وفي رده على المعتزلة يقول: (أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجّة وبرهان، وصفة وتبيان. وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حكّ بيافوخه السماء، موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول، وخذيت القروم فلم تملك أن تصول)[٢]

ولا يخلو رده من جانب تربوي يتراءى من وراء كل كلمة وكل جملة لا يقل عن رده العلمي الدقيق، ففي رده يدعو القارئ إلى الإيمان بمعجزة القرآن وأسرارها البلاغية الخالدة، ساق ذلك في أسلوب أدبي عال، دقيق في وضوحه، عميق في تأثيره الوجداني، وبراهينه العقلية المثيرة في النفوس همة الوقوف

(١) دلائل الإعجاز/ ١٠
(٢) دلائل الإعجاز/ ٣٩

على جوانب فقه نكات هذه المعجزة الخافضة شأن المنكرين، والرافعة شرف المؤمنين الباحثين عن حجج إعجازه وتدبرها.

وإذا أخذنا تحليله لأظهر شاهد في دلائله وهو قوله عز وعلا: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) سورة هود: ٤٤، فسوف نجد مداد الإمام ينهمر في تحليل بلاغة الآية وبيان أوجه الإعجاز فيها، كأنها تسبيحة طويلة، فتجده يقول: (تجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع ، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها- وأن الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها، إن شككت فتأمل! هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل: " ابلعي " واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها...)[١]

إنه نص تحليلي تربوي فخيم، تجلت فيه ذائقته الأدبية السامقة، وقد شارك المتلقي في درسه وحاوره، ولا يزال معه مناقشا معللا، طالبا إياه للتفاعل والتواصل والتأمل والتدبر حتى يصل إلى اليقين بأن العبرة بالنظم وتوخي معاني النحو. وهنا نتساءل: أليس هذا أعلى ما يمكن أن نقوم به في التعليم التربوي التفاعلي بما يتضمن من حوار ومناقشة وإقناع وتوضيح وبيان؟[٢]

ولا يخفى علو الجانب التربوي في تحليله، فالقارئ يجد نفحة إيمانية خاشعة تملأ القلب خشوعا وسكينة واستسلاما أمام جلال النظم الكريم، الذي أبان عنه الإمام بأسلوبه التحليلي التربوي المؤثر في وجدان القارئ تأثيرا عميقا، وبخاصة بهذه الطريقة الحوارية التي تجعل التواصل بينه وبين القارئ قويا من

(١) دلائل الإعجاز/ ٤٥، ٤٦

(٢) سمات الدرس البلاغي بين الإمامين: عبد القاهر الجرجاني والسكاكي/ للباحث/ ٨٧٨

خلال خطابه وطرح الأسئلة الكاشفة عن جلال النظم المبارك، مما يعلي الروح الإيمانية في قلوب متلقيه، ولا يعتقد أنه لم يقصد إلى ذلك، وأنه لم يكن مشغولا به. وهو التقي ذو الدين الورع. رحمه الله ورضي عنه.

والتحليل الذي يحتوي على اللفتات التربوية يؤدي إلى سمو علوم البلاغة ورقيها، لكونها أداة مؤثرة في تحقيق القيم والمبادئ في نفوس المتلقين.

ويعتبر شيخنا الدكتور أبو موسى خير من تمثل منهج الإمام عبد القاهر وتأثر به في تحليلاته البلاغية ذات الملامح التربوية العالية المؤثرة في نفوس طلابه، حيث يراه القارئ مهموما بأزمات المسلم المعاصر، وبهموم أمته التي تبرز من وراء كلماته، والتي يفصح عنها بأنواعها وتفاصيلها، كما في تحليله لدقائق النظم وخصائصه في قوله جل وعلا: (الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) إبراهيم/ ١، حيث تناول بداية التحذير من الكذب على الله تعالى بإضافة معنى إلى كتابه لا يدخل في كلامه، ثم تناول الحروف المقطعة، ودلالة تنكير (كتاب) وصلاحية هذا الكتاب لإخراج الناس من الظلمات إلى النور في كل زمان ومكان، وهذا الإخراج إعجاز غير آخر غير الإعجاز بالتأليف والنظم. ثم أبدع شيخنا الجليل في تحليله لكلمة الظلمات والنور، وأنهما من أجمع الكلمات الغزيرة بالمعاني، فكل شر يدخل في الظلمات، وكل خير يدخل في النور، ثم ذكر سر تقديم الظلمات.

ومما هو من دقائق نظرات الشيخ ولمحاته قوله: (ولو بعث الله واحدا من الأجيال الماضية وسألناه عن ظلمات زمانه لعدد ظلمات تتفق مع الذي نحن فيه وتختلف. لان الظلمات وإن كانت في أصولها العامة واحدة فلكل زمان خصوصية في ظلماته يختلف بها عن غيره.

ولو سألتني عن الظلمات في الزمن الذي عشته قبل خمسين سنة لذكرت لك شيئا يختلف عن ظلمات هذا الزمن، وهكذا لو سألت الناس في كل قطر وفي كل قارة وفي كل زمان لوجدت اتفاقا واختلافا. وآية الله في الكتاب الذي أنزله إلينا

أنه قادر على أن يخرج الناس كل الناس في كل زمان وفي كل مكان من هذه الظلمات،....)[1]

هذا النص جزء من نص طويل تناول فيه الشيخ التحليل البلاغي للآية الكريمة، وتحليله للنص الكريم يكشف لنا حقيقة تلك النفس المثقلة بهموم وطنها وقضايا أمتها، وهي نفس تشبعت بما بثته نفس الإمام عبد القاهر الجرجاني في تراثه المبارك.

وأرى أن هذا هو السبيل الذي يجب أن يسلكه علماء البلاغة العاملين على تجديدها بما تشتمل عليه من الدروس التربوية، وتقريبها إلى المجتمعات المسلمة المعاصرة، حينئذ يُفْتَح لهم من بركات هذا العلم الشريف ما يساهم في حفظ قيم الإسلام وأخلاقه في نفوس هذا الجيل الذي أحيط بعواصف لا قبل له بها.

نستخلص مما سبق:

أن هذه الملامح التربوية العديدة والمتنوعة في منهاج الإمام عبد القاهر تبرز لنا ضرورة ألا تبتعد البلاغة عن مثل هذه القيم التربوية، سواء في اختيارات الشواهد ذات القيم والمثل الدافعة إلى الحق والخير ومعالي الأمور، أو في الدعوة إلى الأخلاق السامية من تقدير العلماء والاعتراف بفضلهم، وتدبر ما يقع تحت أيدينا من نتاجهم، واستكشاف ما تركوه من خبيئات العلوم والمعرفة وراء سطورهم، ليكون ذلك سبيلا إلى تجديد علوم البلاغة، وبناء العقلية البلاغية الباحثة والفاحصة والمدققة، أو في التحليل الذي يكشف للمتلقي الجوانب التربوية التي تبديها النكات البلاغية، مما يجعل الدرس البلاغي متجددا، مكتسيا حلية مناسبة لكل عصر بثقافته وتوجهاته، وفي ذلك حماية للتراث البلاغي الذي ظل منذ نشأته-غالبا-ثريا نقيا خالصا، جديرا ببدء خطواته الأولى تحت راية القرآن.

(١) المسكوت عنه في التراث البلاغي/ ١٨-٢٥

الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين الذي أنعم علينا بهذه الرحلة العلمية في أسفار البلاغة، لاستكشاف الملامح التربوية في مناهج العلوم البلاغية عامة، وفي تراث الإمام عبد القاهر الجرجاني خاصة، وقد أفدت من هذه الرحلة كثيرا، ومما يمكنني تسجيله من نتائج هذه الدراسة:

- علم البلاغة علم قرآني تربوي، وليس علما لغويا خالصا، وهذه النشأة الإسلامية القرآنية جعلت من أهدافه إصلاح طلاب العلم بصفة خاصة والمجتمعات المسلمة بصفة عامة، ومن بعد ذلك يقصد إلى إقامة الألسنة وتخريج المبدعين.

وهذه الطبيعة التربوية لعلم البلاغة تقتضي ممن يحظى بشرف اكتساب هذا العلم، والدراسة لأسراره أن يفوز بحال من الصلاح والتقوى مع الله جل وعلا، وكلما قويت حاله هذه كلما كانت الملامح البلاغية بارزة من وراء كل ما يكتب اتساقا مع طبيعة هذا العلم الشريف، وهذا سر تفوق الإمام عبد القاهر وألقه.

- الملامح التربوية واضحة المعالم في علوم البلاغة الثلاثة: في تعريف الفصاحة والبلاغة، وفي مراعاة أحوال المخاطبين التي تتضمن التربية على فهم المجتمع بجمهوره وثقافته وعاداته. وخطابه بما يناسب أحواله، فيكون لذلك تأثير تربوي وتغيير سلوكي ملحوظ. وفي طرق البيان تنشئة على امتلاك أدوات التأثير وتنوع وسائلها، من تشبيه وتمثيل واستعارة ومجاز وكناية. وفي الفنون البديعية توجيه إلى حسن تقديم البيان عن طريق زيادة التوضيح والتقرير، وحسن التنغيم والتطريب.

- الدراسات البلاغية التحليلية ذات التوجه التربوي من أقرب المجالات إلى وجدان طلاب هذا العلم الشريف بصفة خاصة، والجماهير المتعطشة إلى مثل هذا الجانب المشرق في العلوم العربية والإسلامية بصفة عامة، وأجل ما تكون هذه الدروس التربوية إذا كانت الدراسات البلاغية في ميدان البيانين الكريمين: القرآن الكريم والحديث الشريف.

●لا يتخلى أي أديب أو باحث في علوم العربية لصفة عامة أو البلاغية التحليلية بصفة خاصة عن توجهاته وهمومه خيرا كانت أو شرا، والعلوم البلاغية معينة لكلا الفريقين على تحقيق المقاصد، وتقرير الأهداف، وهذا ما يثقل الحمل على ظهور الباحثين لكشف تلك الملامح التربوية في الفريقين، تلك الملامح التي تكشف عن شخصية العالم أو الأديب أو المعلم وتبين عن قناعاته، وتظهر تموضعه من هموم وطنه وقضايا أمته وتراثها، ليتسنى لنا امتلاك قدرة علمية حافظة لعلوم أمتنا وثقافتها الخالدة من عبث أصحاب الهوى. والتصدي للمغرضين المضلين، وفضح آثارهم الخبيثة.

●أهمية اختيار الشواهد البلاغية التي تحمل قيما تربوية معينة على التحليل التربوي المؤثر في متعلمي البلاغة وجماهير الأمة، والصبر على مشقة البحث عنها في تراث الأمة قديما وحديثا.

●تمتلك علوم البلاغة صفة التجدد والتطور وفق مقتضيات كل عصر، إذا وجدت من أبنائها البارين من يقوم بواجبه البحثي تجاه هذا العلم الشريف والتفتيش عن سبل هذا التجديد داخل هذا العلم وتراثه الذي استنبط منه.

وتعتبر الدروس البلاغية التربوية من أوسع ميادين تجديد هذا العلم الشريف، بسبب تعدد جوانبها، وكثرة فوائدها، ولما يضفيه على علوم البلاغة من والسمو والتوهج.

●يعد الإمام عبد القاهر الجرجاني أظهر من انسابت الملامح التربوية في تراثه الجليل، ومما أدركته الدراسة ما يلي:

- تقديره لأهل العلم والبدء من حيث انتهوا
- دعوة قارئيه إلى إجلال أهل العلم وتقديرهم.
- إثارة الهمة في نفوس قارئيه للبحث عن الجديد بإدامة ملازمة العلوم وطول النظر فيها وعمق تدبرها.
- الدعوة إلى الصبر والأمانة العلمية.
- التواصلية العلمية، وبناء العقول.

- الدعوة إلى التدرج ومراعاة الفوارق الفردية.
- الدعوة إلى الاهتمام بالوسائل ذات التأثير النفسي في المخاطب.
- التحليل البلاغي التربوي.

وبعد:

فإني أوصي زملائي الباحثين بتتبع مثل هذه الملامح التربوية في مصنفات سلف الأمة ومؤسسي علومها بصفة عامة، وفي البلاغة العربية بصفة خاصة، والتي كانت عبارة عن إشارات بارقة، ولمحات خاطفة، كما أوصي بخوض غمار المجال التحليلي التربوي الذي يتناول الواقع ومعالجة مشاكله بما يختار له من النصوص القرآنية والنبوية، والنماذج الشعرية ذات الصلة بالهموم الوطنية، والقضايا الإسلامية والعالمية، وفي ذلك يظهر الجانب المشرق لهذا العلم الجليل، وتتفتح آفاق جديدة أمام الباحثين، ونُحيي هذا التراث الذي استمد من الإعجاز الكريم في نفوس الأمة التي جفت بجفاف الجوانب التربوية والوجدانية في الدراسات الحديثة. والله أعلم. وله الحمد والمنة، وصلى الله وسلم على نبيه المصطفى.

المصادر والمراجع:

١. أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري/ محمد زغلول سلام/ دار المعارف بمصر
٢. أثر المتلقي في التشكيل الأسلوبي في البلاغة/ وليد قصاب/ سجل ندوة الدراسات البلاغية بين الواقع والمأمول/ جامعة الإمام محمد بن مسعود/ الرياض السعودية ١٤٣٢هـ
٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ أبو السعود/ مطبعة عبد الرحمن محمد – القاهرة
٤. أسرار البلاغة/ عبد القاهر الجرجاني/ ت/ محمود شاكر/ مكتبة وهبة–القاهرة
٥. الأسس الجمالية في النقد العربي/ عز الدين إسماعيل/ ط١ القاهرة.
٦. أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية–تأسيس نحو النص–/ محمد الشاوش/ ط١/ كلية الآداب جامعة منوبة– تونس ٢٠٠١م
٧. الإعجاز في معترك الأقران للسيوطي مقال/ د/ محمد أبو موسى/ مجلة الأزهر/ عدد (ذو القعدة ١٤٤٣ه–يونيو ٢٠٢٢م
٨. الإيضاح في علوم البلاغة– المعاني والبيان والبديع/ الخطيب القزويني/ ط١/ دار الكتب العلمية– بيروت ١٤٢٤ه–٢٠٠٣م
٩. الإيضاح في علوم البلاغة/ عبد القادر حسين/ ط١/ مكتبة الآداب – القاهرة ١٩٩٦م
١٠. البحر المحيط في التفسير/ أبو حيان الأندلسي/ ت/ صدقي محمد جميل/ دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠ ه
١١. البديع/أبو العباس عبد الله بن المعتز/ ت/ عرفان مطرجي/ مؤسسة الكتب الثقافية–ط١– ١٤٣٣ه–٢٠١٢م
١٢. البديع وأثره النفسي في تفسير الآلوسي (جزء عم نموذجا) م.د/ مؤيد يحيى قاسم/ مجلة مداد الآداب/ وزارة الزراعة/ كلية بغداد–الأعظمية
١٣. البرهان في وجوه البيان/ ت حفني شرف، القاهرة.
١٤. البلسم الشافي في علوم البلاغة/ فواز فتح الله الراميني/ دار الكتاب الجامعي ط١/ الإمارات ٢٠٠٩م
١٥. البلاغة تطور وتاريخ/ د/ شوقي / ط٤ دار المعارف
١٦. البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع/ د/ مسعود بودوخة/ دار الكتب العلمية
١٧. البلاغة المفترى عليها/ د/ فضل حسن عباس/ ط٢/ دار الفرقان– ١٤٢٠ه–١٩٩٩م
١٨. البلاغة والأثر النفسي–دراسة في تراث عبد القاهر الجرجاني/ عبد الله عبد الرحمن أحمد بانقيب/ رسالة ماجستير–كلية اللغة العربية–جامعة أم القرى

١٩. البيان العربي–دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية/ بدوي طبانة/ ط٢ –مكتبة ضيف الإنجلو المصرية
٢٠. البيان والتبيين/ الجاحظ/ الشركة اللبنانية للكتاب ١٩٦٨م
٢١. البيان والتبيين/ ت/ عبد السلام هارون ط٤/ دار الفكر بيروت
٢٢. التداولية عند العلماء العرب– دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي/ مسعود صحراوي/ ط١– درار الطليعة بيروت– لبنان ٢٠٠٥م
٢٣. تاريخ الأدب العربي/ د/ عمر فروخ/ دار العلم للملايين–بيروت/ ط٤ ١٩٨١م
٢٤. تاريخ آداب العرب/ مصطفى صادق الرافعي/ دار الكتب العلمية – بيروت – لبان
٢٥. التصوير البياني/ د/ محمد محمد أبو موسى/ ط٣/ مكتبة وهبة –القاهرة ١٤١٣ه–١٩٩٣م
٢٦. ينظر/ التفسير الكبير/ الإمام فخر الرازي/ دار إحياء التراث العربي–بيروت
٢٧. التلخيص في علوم البلاغة/ جلال الدين القزويني/ شرح عبد الرحمن البرقوق/ دار الفكر العربي.
٢٨. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع/ السيد أحمد الهامشي/ دار الفكر بيروت لبنان
٢٩. خزانة الأدب وغاية الأرب/ ابن حجة الحموي/ دار ومكتبة الهلال بيروت
٣٠. الخصائص/ ابن جني/ عالم الكتب.
٣١. خصائص التراكيب–دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني/ مكتبة وهبة–ط٤ ١٤١٦ه–١٩٩٦م
٣٢. خطاب المناظرة في التراث العربي الإسلامي (مقاربة لآليات بلاغة الإقناع) عبد اللطيف عادل/ أطروحة بكلية الآداب – جامعة القاضي عياض–مراقش.
٣٣. دراسات في علم البديع/ عبد الواحد حسن الشيخ/ مكتبة الإشعاع للطباعة والنشر والتوزيع – مصر.
٣٤. دلالات التراكيب–دراسة بلاغية/ مكتبة وهبة – القاهرة ط٢ ١٤٠٨ه–١٩٨٧م
٣٥. ديوان أبي تمام الطائي/ شرح/ محي الدين الخياط/ طبع نظارة المعرف العمومية الجليلة.
٣٦. ديوان ابن زيدون ورسائله/ ١٤١ وما بعدها/تحقيق على عبد العظيم/ نهضة مصر للطباعة والنشر
٣٧. الرسائل الأدبية/ الجاحظ/ دار ومكتبة الهلال، بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ ه
٣٨. رسائل الجاحظ/ ت/ عبد السلام محمد هارون/ مكتبة لسان العرب
٣٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسني الآلوسي/ ت/ علي عبد الباري عطية/ دار الكتب العلمية–بيروت/ ١٤١٥ه–

٤٠. سمات الدرس البلاغي بين الإمامين: عبد القاهر الجرجاني والسكاكي/ د/ شحاتة عبد الرازق أبوشوشة/ المؤتمر العلمي الثالث (قضايا التراث العربي والحضاري-التحديات والآمال) كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
٤١. سير أعلام النبلاء/ ١٨/ ت/ شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي/ مؤسسة الرسالة/ ط١/ ١٤٠٥-١٩٨٤م
٤٢. الشعر والشعراء/ ابن قتيبة/ دار إحياء العلوم/ ط٦/ بيروت-١٩٩٧م
٤٣. صفوة التفاسير/ محمد علي الصابوني/ دار القرآن الكريم/ ط٤/ بيروت ١٩٨١م
٤٤. الصناعتين-الكتابة والشعر/ أبو هلال العسكري/ ت/ علي محمد البيجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم/ دار الفكر العربي
٤٥. طبقات فحول الشعراء/ محمد بن سلام/ شرح-محمود شاكر/ دار المدني بجدة.
٤٦. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز/ بحيى بن حمزة العلوي/ مطبعة المقتطف بمصر-١٢٢٣ه-١٩١٤م
٤٧. عبد القاهر إعجاز القرآن/ د/ محمد أبو موسى/ مجلة الأزهر-عدد/ جمادى الآخرة/ ١٤٤٠ه- ٢٠١٩م
٤٨. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده/ ابن رشيق القيرواني/ ت/ عبد الحميد هنداوي/ ط١ المكتبة العصرية/ صيدا بيروت ٢٠٠١م
٤٩. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده/ ابن رشيق القيرواني/ ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر/ دار الجيل الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
٥٠. فحولة الشعراء/ لأبي سعيد الأصمعي/ ت/ د/ محمد عبد المنعم الخفاجي، وطه محمد الزيني/ ط١/ المطبعة المنيرية في الأزهر ١٩٥٣م،
٥١. فنون بلاغية/ زين كامل الخواسكي، وأحمد محمود المصري/ دار الوفاء ط١/ الإسكندرية ٢٠٠٦م
٥٢. في البلاغة القرآنية-أسرار الفصل والوصل/ د/ صباح عبيد دراز/ ط١/ مطبعة الأمانة ١٤٠٦ه-١٩٨٦م
٥٣. القيم التربوية والجمالية في مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني/ د/ محمد عبد الله أبو الرب، د/ عبد العزيز موسى درويش/ مجلة بحوث التربية النوعية- جامعة المنصورة - عدد خاص ٢٠- فبراير ٢٠١١م
٥٤. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ الزمخشري/ دار المعرفة بيروت-لبنان ط٣ ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م،
٥٥. الكناية والتعريض/ ت/ د/ أسامة البحيري/ مطبعة الخانجي/ ط٢ ١٩٩٧م

٥٦. اللسان في البيان الحكيم-موقعاً ودلالة-دراسة بلاغية تحليلية/ للباحث/ حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية-العدد السادس والعشرون-المجلد الأول-١٤٣١هـ-٢٠١٠م
٥٧. المبالغة والغلو عند شعراء المعلقات العشر – دراسة بلاغية/ رسالة ماجستير للباحثة/ حمدية عباس جاسم الخفاجي/ كلية التربية للبنات – جامعة بغداد/ ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م،
٥٨. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر/ ابن الأثير/ ت/ محمد محي الدين عبد الحميد/ مطبعة البابي الحلبي/مصر ١٩٣٦م
٥٩. المسكوت عنه في التراث البلاغي/ ط١/ مكتبة وهبة القاهرة/ ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م
٦٠. معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب/ ياقوت الحموي/ ١٩/ دار الفكر، بيروت-١٤٠٠-١٩٨٠
٦١. مفردات غريب القرآن/ الراغب/ دفتر نشر الكتاب/ ط٢ ١٤٠٤هـ
٦٢. المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية/ جمال الحضري/ مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع/ ط١ بيروت لبنان٢٠١٠م
٦٣. من أسرار التعبير القرآني-دراسة تحليلية لسورة الأحزاب / مكتبة وهبة/ ط٢-١٤١٦هـ-١٩٩٦م
٦٤. من سلطة النص إلى سلطة القارئ/ فضل ثامر/ ع ٤٩/ مجلة الفكر العربي.
٦٥. منهج التعامل مع الشاهد البلاغي بين عبد القاهر الجرجاني وكل من السكاكي والخطيب القزويني/ د/ عويض بن حمود العطوي/ مجلة جامعة أم القرى/ ج١٨/ ع٣٠/ جمادي الأولى ١٤٢٥هـ
٦٦. الموجز في تاريخ البلاغة/ د/ مازن المبارك/ دار الفكر
٦٧. الموازنة بين أبي تمام والبحتري/ ت محمود توفيق/ القاهرة ١٩٤٤م
٦٨. ميزان الحكمة/ محمد الريشهري/ دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع
٦٩. نقد الشعر/ قدامة بن جعفر/ ت/ كمال مصطفي/ ط١/ مكتبة الخانجي ١٩٦٣م
٧٠. نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب/ طالب سيد هاشم الطبطبائي/ جامعة الكويت ١٩٩٤م
٧١. النكت في إعجاز القرآن/ لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني/ مكتبة الجامعة المليـة الإسلامية-دلهي ١٩٣٤م

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٤٥٩١
٢-	Abstract	٤٥٩٢
٣-	التقديم:	٤٥٩٣
٤-	المبحث الأول: الملامح التربوية في العلوم البلاغية.	٤٥٩٨
٥-	الملامح التربوية في تناول الفصاحة والبلاغة:	٤٦٠٢
٦-	الملامح التربوية في علم المعاني:	٤٦٠٨
٧-	الملامح التربوية في الصور البيانية:	٤٦١٧
٨-	الملامح التربوية في الفنون البديعية:	٤٦٢٨
٩-	المبحث الثاني: الملامح التربوية في التراث البلاغي للإمام عبد القاهر الجرجاني	٤٦٣٧
١٠-	الخاتمة:	٤٦٦١
١١-	المصادر والمراجع:	٤٦٦٤
١٢-	فهرس الموضوعات.	٤٦٦٨

تم بحمد الله